

غربة الروح

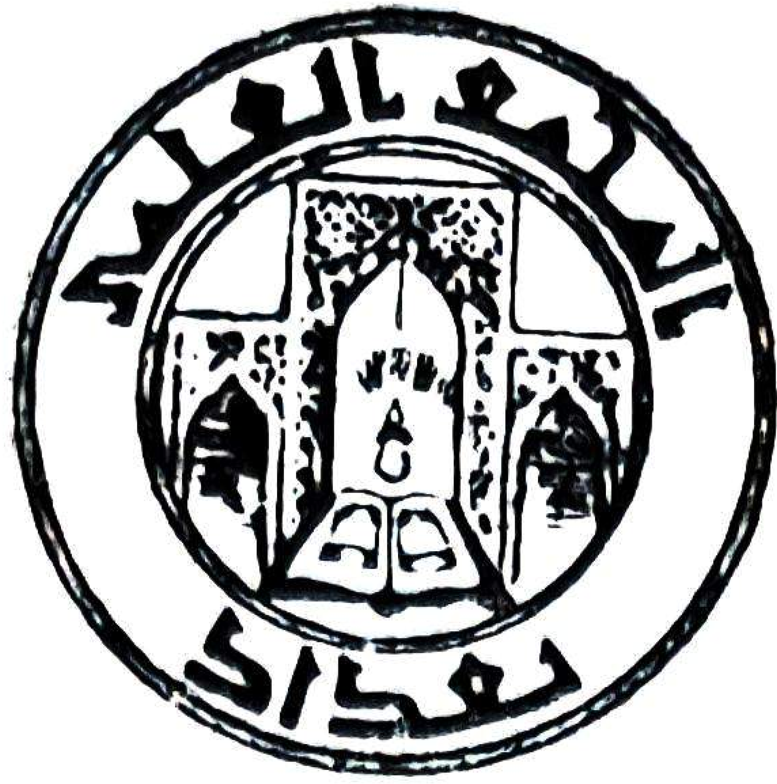
قراءة في شعر ابراهيم السامرائي

الدكتور احمد مطلوب

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م



غربة الروح

قراءة في شعر ابراهيم السامرائي

الدكتور احمد مطلوب

منشورات المجمع العلمي

مطبعة المجمع العلمي

١٤٢٨هـ ــ ٢٠٠٧م

الإهــــداء

الى روح أستاذي الجليل

الدكتور ابراهيم السامرائي

وهــو في مثــواه الاخــير

في عمــان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كنتُ في السنة الرابعة بكلية الآداب والعلوم ببغداد حين التحق أستاذ جديد بها سنة ١٩٥٦م ، كان ذلك الأستاذ الدكتور ابراهيم السامرائي الذي درس فقه اللغات في السوربون بباريس .

لم أدرس عليه ، لأنه جاء في شهر آذار الذي بدأ يبشر بانتهاء العام الدراسي ، ولكنه ـ رحمه الله ـ كان أحد لجنة مناقشتي في رسالة الحصول على درجة الامتياز الخاصة ، التي طبعتها وزارة الثقافة والإعلام سنة ١٩٨٨ بعنوان « ضياء الدين بن الأثير ـ سيرة ومنهج ـ » في سلسلة « نوابغ الفكر العربي » .

وتوثقت صلتي به منذ ذلك الحين حتى وفاته في عمان سنة ٢٠٠١م ، وكان من أثر تلك الصلة أن حققت معه في مطلع الستينيات : « ديوان القطامي » ، و « ديوان قيس بن الخطيم » و « شعر عروة بن حزام » .

ومرت الاعوام ونحن في كلية الآداب حتى إذا جاءت سنة ١٩٨٢م ـ وقد عزم على مغادرة العراق ـ كلفني بأن أتابع بعض قضاياه بعد أن أحال نفسه على التقاعد سنة ١٩٨٠م . وبقيتُ على صلة به ، أتابع أخباره وهو في الأُردنّ أو اليمن ، وأقرأ ما يرسل اليّ من كتبه ، وما كنت أعلم أن له شعرا غزيرا حتى صدر ديواناه : « حنين الى الكلم الضائع » سنة ١٩٩٩م ، و « من ملحمة الرحيل » سنة ٢٠٠٢م ، وهما في (١١٧٠) صفحة من القطع الكبير .

قرأت الديوانين وكتابي سيرته : « حديث السنين » ، و « فوات ما فات من حديث السنين » ، فهاجت الذكرى وعادت بي الى سنة ١٩٥٦ ؛ ورأيت

من الوفاء أن أكتب عن شعره رسالة ، بعد أن أصدر أحمد العلاونة ـ من الاردن ـ كتابه « ابراهيم السامرائي علامة العربية الكبير والباحث الحجة » تعرّض فيه لحياته بايجاز شديد ، واستعرض مؤلفاته ، وهو كتاب يُحمد لشاب وجد في استاذه الجليل وفي كتبه ما لا يحسن أن يسكت عن الثناء عليه ، والتعريف بكتبه التي تفخر بها المكتبة العربية .

رجعت الى ديوانيه وكتابَي سيرته واتخذتها أساسا في الكلام على حياته التي أعرِفها جيدا ، ودراسة شعره الذي كان حديثا عن الغربة ، والشكوى ، والحنين الى الوطن والدار . واتّسقت المباحث فاذا بسيرته تعرض عرضاً مفصّلا ، وإذا بالغربة والشكوى والحنين تظهر سافرة ، لتفضي الى الاستلهام ، والملامح العامة لشعره الذي لم يخرج فيه على عمود الشعر العربي .

وبعـد :

فهذه صفحات كُتبت وفاءً لأستاذ جليل خدم اللغة العربية خدمة عظيمة، وقدم خير تتاج علمي وكان قدوة للباحثين . وقد سَمّيتها « غربة الروح ـ قراءة في شعر ابراهيم السامرائي » لأن غربته ـ رحمه الله ـ كانت روحية أكثر منها غربة مكانية ، وكانت القراءة وصفية لا نقدية ، لأنّ الهدفَ هو تقدير الراحل ، وعَرْضُ الملامح العامة في شعره لتكون منطلقا الى دراسات أخرى ينْهَدُ بها الباحثون في شعره ، وتراثه العلمي الرصين ، الذي كان صورة صادقة للغة العربية وعلومِها المختلفة ، إنها لغةُ القرآن الكريم التي اعتز بها ـ رحمه الله ـ وقضى عمره في سبيلها ، يذود عنها العجمة والانحراف ويردّ الآراء الزائفة والمواقف المريبة ، وكفى بذلك فخرا وخلودا .

بغـداد ـ الثلاثاء
الاول من شـوال ١٤٢٤هـ
٢٥ تشرين الثاني ٢٠٠٣م

الدكتور احمد مطلوب

الـرحلـة

(١)

شهد العراق في مطلع القرن العشرين تدهورا اقتصاديا ، وعمّ الجوع معظم حواضره وبواديه ، وضاق الناس ذَرْعا بمواطنهم فأخذ بعضهم يهجر مواطنه الى مكان آخر يجد فيه ما يسدّ الرمق ويكفل معيشة من يعيلهم .

كانت الهجرة ـ في الغالب ـ نحو جنوب العراق ، وشهدت بغداد ، وبعقوبة ، والعمارة ، والبصرة أفواجا من النازحين من تكريت ، وسامراء ، وعانة وراوة ، وهيت ، بعد أن أصبحت الحياة صعبة ، ولا يستثنى من ذلك إلا الذين اتجهوا الى بغداد للالتحاق بمعاهد العلم ، أو الحصول على وظيفة في ظل الاحتلال البريطاني للعراق في أثناء الحرب العالمية الاولى .

كانت الهجرة شديدة التأثير في الناس لما لاقوه في الغربه وصعوبة الحصول على العمل ، ولكن كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ : « وعسى أن تكرهوا شيئا ، وهو خير لكم » إذ أصبح بعض أبناء الاسر النازحة أعلاما يفتخر بهم العراق ، ومنهم المرحوم استاذي الدكتور ابراهيم السامرائي الذي نزح جده الى العمارة مع طائفة من أهل سامراء ، وفيها ولد سنة ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م .

تحدث ـ رحمه الله ـ عن أسرته فقال : « جاءت أسرتنا ـ وأولهم جدي ـ مع الوافدين السامرائيين الى العمارة ، فمنهم من اشتغل بعمارة الدور ، ومنهم من ذهب الى الارض فغرس الشجر في بساتين لم تكن مدينة العمارة تعرفها ، وآخرون وجدوا في المهن الاخرى من بَيْع وشراء وسيلة

رزقهم . وعلى هذا لم يكونوا أصحاب ثروة كبيرة بل كانوا من وجوه البلد الذين وجد فيهم أهل العمارة ذوي أصول عربية فركنوا اليهم ، وعقدوا معهم صلات فيها مَوَدّة ورحمة »[1] .

لم تكن حياته هانئة رغيدة ، فقد نشأ في بيت كثرت فيه المشكلات لاشتماله على عشيرة كاملة من عمومته ، ولما كان أولادهم يثيرون من خصومات يومية غير مدركين ما يسببونه من متاعب لاهليهم[2] . وتعاورت الهموم عليه وهو صغير حدث إذ مات أبواه الواحد بعد الآخر لما لقياه من شقاء ، وخطوب ، وأمراض ، وأحداث ، قال : « لقد لقيت أسى ثقل عليّ وأنا أرى أبويّ وما كانا فيه . لقد ذهبت أمي وهي تصارع السل ، رأيتها وقد بُحّ منها الصوت فلا تكاد تسمع من ترد عليه ، وتنفث من صدرها دما ، وكان لها أن قضت نحبها ، ثم كانت فجيعتي بأبي الذي حُمل الى البصرة كسير الساق ، فتوفي غريبا ودفن هناك »[3] .

وعُوِّضَ منهما بأم رؤوم هي خالته التي حَدبت عليه وعلى أخوته الصغار ولا سيما شقيقته التي أصيبت بالسل فرافقها الى لبنان . ووصف ما كان عليه في طفولته فقال : : « لقد غبر علينا زمان كنا لا نجد فيه من طعامنا إلا مسكة تتبلغ بها لا تتجاوز الخبز القَفار ، إلا بما نأدمه من إدام فيه بعض الخضر ، ولكننا ما كنا نبتئس بما نصيب . وما لنا نحدث أنفسنا بالنفيس ، لقد عصمنا نفوسنا أن تذهب في سوء يسعى اليه جمهرة اوتضت الدنيا حقلا ترتع فيه . لقد كان لي ولصحبي الكثيرين أن نتبلغ كل صباح بالكسرة اليابسة نستعين على ابتلاعها بشرب الشاي ، ثم نسرع الى المدرسة

---

(١) حديث السنين ص٩ .

(٢) ينظر نفسه ص٨-٩ .

(٣) حديث السنين ص٢٨ .

سعيا نحث الخطى فنبدأ سعينا راضين ، يغمرنا أمل أن ستشرق شمس غدٍ بخير ومتاع للناس ، وسينعم الناس بذَرْءٍ من نعيم »[٤] .

دخل الكُتّاب ، وبدأ قراءة القرآن الكريم بجزء (عَمّ) وكان (الملا) أو الشيخ يشتد عليهم ـ أي الصغار ـ حرصا منه على أن يختموا قراءة كتاب الله العزيز ، ويحتفل أهلوهم في موكب مهيب . وكان قد ختم قراءة المصحف الشريف ، ولكنه حُرِم من الاحتفال برسوم الختمة لرزئه بأبيه ، فحزن أشد الحزن وأبلغه ، وحزنت أسرته كلها ، وما كان له وقد قضى عامين في الكُتّاب إلا أن يأخذه أخوه الاكبر الى مدرسة قريبة من سكناه وهي (مدرسة الكحلاء) التي أنهى المرحلة الابتدائية فيها ، ثم انتقل الى المتوسطة فالثانوية ولكنه لم يكملها ، اذ توجه في السنة الرابعة الى دار المعلمين الابتدائية في بغداد ، ودخل طالبا في السنة الثانية لاحتساب السنة الرابعة في الثانوية . وأدى ـ وهو في الدار ـ الامتحان الوزاري ، وحصل على الشهادة الثانوية ـ الفرع العلمي ـ بتفوق ، ولولا اشتعال الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م لكان نصيبه الانضمام الى البعثة العلمية . وكان قد قُبِل في المدرسة العسكرية قبل أن تتحول الى كلية ، وكان معه ناجي طالب الذي أصبح وزيرا بعد عام ١٩٥٨ ، ورئيسا لمجلس الوزراء سنة ١٩٦٦م ، وعبدالسلام محمد عارف الذي أصبح رئيسا للجمهورية العراقية سنة ١٩٦٣م غير أنه تركها بعد شهر من قبوله مفضلا مهنة التعليم ، قال : « والله لقد رضيت أنا بحرفة التعليم ، وكان لي بها علاقة حب أكيد »[٥] .

تخرج في دار المعلمين الابتدائية ، وكان الاول على دفعته ، وعين معلما في مدرسة تطبيقات الدار النموذجية ، وكان وحيدا فسكن في القسم الداخلي

---

(٤) نفسه ص٢٢ . الذرء : الشيء اليسير .
(٥) فوات ما فات من حديث السنين ص٧٨ ، وتنظر في ص٥ مقابلته لعبدالسلام سنة ١٩٦٣ .

مراقبا لطلبة الدار . وكلف بتدريس اللغة العربية ، واعداد دروس نموذجية لطلبة الدار، ثم تحول في السنة الثانية الى تدريس اللغةالانكليزية، وكان يتزود بالعلم ويقصد أهل العلم في أشهر الصيف حين تغلق المدارس أبوابها ، قال : « كنت في صباي أقصد أهل العلم في الصيف حين تغلق المدارس أبوابها ، فدأبت أتزود بعلم الحساب ، والهندسة ، لدى أحد الشيوخ الذي كان إمام مسجد في الحيّ ، وهو الشيخ أمين الفلكي . لقد انعقدت بيني وبين الشيخ صلة من مودّة أساسها رعاية منه لعلمه أني وصلت اليه بزاد التقوى ، فأحببت أن أفيد منه في غير العلوم الدينية ، كما قصدت غير واحد من أولئك الأساتذة ، أطلب النحو ، فكان لي قراءات في (الأجرومية) لمحمد بن محمد ابن آجروم الصنّهاجي ، وفي شرح (الألفية) للسيوطي . ثم تحولت من هذا الدرس القديم الى ما كتبه الاساتذة في مطلع القرن ، فقرأت روايات جرجي زيدان ، وكتب مصطفى لطفي المنفلوطي مما صنفه ومما ترجمه ، وكان من هذا كتاب (النظرات) وكتاب (العبرات) وكتاب (ماجدولين) وكتاب (في سبيل التاج) . قرأت فيما قرأت كتب الرافعي ، وفيها (وحي القلم) و (تحت راية القرآن) وغيرهما »[٦] .

اكتسب ما تيسر له من الثقافة القديمة والحديثة ، ووجد نفسه قادرا على اكمال تعليمه بعد أن نقل معلما الى مدرسة في طرف جنوبي بغداد مما يكلفه كثيرا ، وراتبه عشرة دنانير ، فالتحق بدار المعلمين العالية ليتزود بالعلم ، وينعم بما تقدمه الدار من مسكن ومأكل وملبس ، قال : « قلت في نفسي : إني لأربح راتبي هذا حين أنتسب طالبا في دار المعلمين العالية ، ذلك أن النظام في الدار يقدم للطالب العيش والسكن ، وأنا بما كنت قد ادخرته استدرك ما بي حاجة اليه من أمور أخرى . لقد تم هذا ، وعدت طالبا في قسم اللغة العربية »[٧] .

---

(٦) حديث السنين ص٧٥-٧٦ .
(٧) نفسه ص٧٦ .

تخرج بتفوق وكان من أساتذته محمد فاضل الجمالي ، وكامل النحاس ، وطه الراوي ، ومحمود غناوي ، ومحمد مهدي البصير ، وعبدالعزيز الدوري، ومصطفى جواد . ومن زملائه علي الزبيدي ، وعلي جواد الطاهر ، وصلاح خالص ، وفيصل الوائلي ، وعبدالكريم خليفة ، وسليمان العيسى ، وصبحي البصام..

انتهت مرحلة الدراسة في دار المعلمين العالية وعين مدرسا في (كلية الملك فيصل) وهي ثانوية نموذجية مديرها انكليزي ، والدراسة فيها باللغة الانكليزية ما عدا اللغة العربية والتأريخ الاسلامي . وأغلقت الكلية بعد أن قام طلبتها بتظاهرة ، ونقل مدرسا في دار المعلمين الريفية بالمحاويل ، ولكنه بقي من غير عمل لما حدث في الدار من تظاهر ، ففكر بالالتحاق بالبعثة العلمية، وتقدم بأوراقه ولكن اسمه لم يظهر مع العلم أنه الأول على دفعته ، وكاد أمله ينهار لولا استاذه الدكتور مَتّى عقراوي ، قال : « كان لي يوما وأنا أقطع شارع الرشيد آخذا دربي على الرصيف من باب المعظم ، إذ أنا ألقى قرب المسجد المشهور بجامع الحيدرخانه الاستاذ مَتّى عقراوي ، فبادرته بالتحية التي هو جدير بها والتي هي مني أنا التلميذ الذي نعمت بعلمه وأدبه ، فلم يكن منه إلا سؤال من فوره : ولِمَ لمْ تذهب الى الخارج مع مَنْ ذهب من زملائك فلان وفلان ؟ قلت له : لم يظهر اسمي بين الاسماء التي عرفت في نتائج البعثات التي نشرت في الصحف . فقال لي : ـ وهو قد تحوّل من عمادة دار المعلمين العالية الى وظيفة جديدة في وزارة المعارف هي مدير التعليم العالي ليعمل على إقامة جامعة بغداد ـ : سأدرس ما بقي من طلبات البعثة ، وأرى . ثم قال : أين تعمل الآن ؟ فقلت في كلية الملك فيصل . ثم كان الغد بعد أن لقيته ، واذا بالعميد يناديني ويقول : الدكتور عقراوي يكلمك في الهاتف ، فجئت الى العميد لأرد على الاستاذ عقراوي ، واذا هو يقول : إذا انتهيت من عملك فتعال الى الوزارة وقابلني . لقد ذهبت لاقابله بعد أن انتهى

عملي ، طلبت الاذن من السكرتير ، فقال : لقد نبهني ، وأراد أن تدخل عليه عند وصولك ، فلما دخلت ، قال : لم أجد لك ملفا بين الملفات ، فلم يكن مني إلا إبراز ما كنت أحتفظ من ورقة تثبت أني قدمت طلبا يشتمل على كذا وكذا . قال : لا عليك ، فاستدعى ملاحظ البعثات يومئذ ، فجاء فسلمه الورقة ، وفيها اسمي والرقم والتأريخ اللذين كانا فيها ، فانصرف ، ولم يعد إلا بعد ما يقرب من نصف ساعة ، وعاد بملف كأنما هو مما أهمِل ونُسي أمره ، وحُفِظ تحت بساط المكتب (كومبار) ـ وهو نسيج غليظ قديم يفرش في الحجرات ، لا تنفذ فيه الرطوبة[8] . لقد علم الاستاذ عقراوي أنما أريد أن يضيع الملف ويتلف ، فقد أثرت فيه رطوبة الارض ، فأسالت الحبر الذي فيه . لقد نظر الاستاذ عقراوي في الملف فوجده كاملا ، فما كان منه إلا أن أضاف ورقة ، ووصلها به ،وجهها الى السيد مدير البعثات يومئذ ، وكأن هذا قد أدرك من أمر الملف الذي عبث به صاحبه ملاحظ البعثات ، ولكنه كان مضطرا أن يعمل شيئا ، استجاب فيه للمدير العام الاستاذ عقراوي »[9] . ولكن مدير البعثات ـ لغرض في نفسه ـ حوله الى مصر ، وكان عليه أن يقضي فيها طالبا في السنة الرابعة بكلية الآداب قبل التحاقه بالبعثة . وعاد الى الاستاذ عقراوي وأخبره فأمر بارساله الى فرنسة ، وبعد اكماله المعاملات الرسمية توجه الى بيروت مصطحبا خالته وشقيقته التي شاركت أمها في مرض السل .

---

(٨) هذا ما حدث لاستاذي المرحوم الدكتور احمد ناجي القيسي حينما قدم للبعثة الى جامعة طهران ، وما حصل لي اذ كنت الاول على الكلية ووافق منير القاضي على تعييني معيدا فيها ، واختفى امر الوزير ولم اعثر عليه الا بعد ثلاثين عاما .

(٩) حديث السنين ص١٢٩ .

(٢)

وَدَّعَ بغداد بقصيدة : « لو كنت تعلم » ووصل الى بيروت في صيف ١٩٤٨م ، وأدخل شقيقته مصح (هملين) في (حمانه) وكانت خالته تراجعها في المصح ، وغادرهما متوجها الى باريس بالباخرة ، وكان يُرسِل الى خالته النقود لتكمل علاج شقيقته بطريق شامل السامرائي الذي كان يدرس الطب في جامعة دمشق ، ويزور المريضة بين حين وآخر ٠

كان معه في البعثة علي الزبيدي ، وعلي جواد الطاهر ، وصلاح خالص ــ رحمهم الله ــ وقد تفرقوا في باريس ليتقنوا اللغة الفرنسية ٠ وانتسب في السنة الاولى الى معهد (الاليانس) الذي يعمر بالاجانب الذين لا يعرفون الفرنسية ، وأنهى مراحل التعليم في هذا المعهد ، ونال شهادته ، وكان في الوقت نفسه يحضر في السوربون محاضرات في الثقافة الفرنسية تقدَّم لغير الفرنسين ٠

كان زملاؤه الثلاثة قد استقروا على دراسة الادب العربي ، أما هو فقد وجهه الدكتور عقراوي الى دراسة اللغات الجزرية (السامية) ، وفزع الى زميله حسن ظاظا الذي كان يدرس اللغة العربية فأشار عليه أن ينتسب الى المعهد الكاثوليكي ، ويتابع محاضرات (دروم) في المدرسة العليا للدراسات في العبرانية والحبشية ، ومحاضرات (دبونت سومر) في اللغة الآرامية ٠ وتابع دراسة هذه اللغات ، ومحاضرات (بلاشير) ومحاضرات في الأدب يلقيها الاساتذة لطلبة المرحلة الجامعية الاولى ، ومحاضرات (بروفنسال) في الحضارة الاسلامية في الأندلس ، ومحاضرات (شارل بلا) في الجاحظ والبيئة البصرية ٠ وعَرَفَ في مدرسة اللغات الشرقية (وليم مارسيه) و (جان كانتنو) ، وعرف في كلية فرنسة (ماسنيون) و (كاستون ڤيت) ٠

وانتسب الى المعهد الكاثوليكي ليدرس اللغات الجزرية ، وبدأ بدراسة اللغتين : العبرية والآرامية ، ثم الحبشية ، والبابلية الآشوية والسبئية ، وأخذ يتردد على معهد اللوفر لمعرفة الخطوط القديمة وأمضى سنة كاملة وهو يتردد على المعهد ثلاث مرات في الاسبوع • ومرت ثلاث سنوات وهو يتابع المحاضرات في المعاهد المختلفة ، ويتردد على المكتبة الوطنية ، وبدأ يفكر برسالة الدكتوراه ، فسجلها باشراف (بلاشير) وأصبح (جان كانتنو) المشرف الحقيقي لأنه لغوي مُلِمّ باللغات الجزرية • وكانت رسالته الرئيسة (الجموع في القرآن) والرسالة الثانية تحقيق كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) لضياءالدين بن الاثير • وقد عمل بهمة لانجازهما ، وقصد لندن في آب ١٩٥٣م ليبحث عما لم يجد في فرنسة من كتب ودوريات ، وأكمل الرسالتين وحدّد اليوم الاول من آذار سنة ١٩٥٦م لمناقشته • ولم يكن هذا الموعد مناسبا له ؛ لأن مدة بعثته ــ وهي ست سنوات ــ قد انتهت ، واعقبتها سنة عجفاء كان عليه أن يقضيها بما سمحت الحال ، وانتهت هذه السنة وكان عليه أن ينتظر أربعة شهور ، وحار في أمره وعلم استاذي المرحوم الدكتور سليم النعيمي ــ المستشار الثقافي في السفارة ــ بذلك ، فاتصل بوزارة المعارف لمنح الطالب المدة المطلوبة فلم يوفق الى ذلك • وشاء الله أن تتيسر الامور ، إذ مرّ نوري السعيد بباريس وأخبره النعيمي بالموضوع ــ رحمه الله ــ : « انتهز الدكتور النعيمي فرصة وجود السيد نوري السعيدفي باريس في طريقه منها الى لندن ، وقد كان له أن زار السفارة العراقية وبدأ يسأل العاملين فيها • وكان له أن سأل الدكتور النعيمي عن عمله ، فقال له بجرأته المعروفة وصراحته : إني غير سعيد في عملي هذا ، فقال السيد نوري السعيد : وما سبب ذلك : فقال : بأن وزارة المعارف في بغداد لا تيسر من مهمتي فهي ترفض ما اكتبه حين أرى أن كثيرا مما أطلبه هو حق ينبغي أن أحصل فيه

على موافقة رسمية . فقال السيد نوري السعيد : دع عنك هذا ، واذكر لي آخر طلب لك رفضوه ولم يجيبوا عنه . فقال الدكتور النعيمي : إن الوزارة رفضت طلبا ، طلبت فيه أن توافق على منح ابراهيم السامرائي الطالب الجاد الذي شهد له الاساتذة الفرنسيون ، مخصصات أربعة أشهر تأخر فيها من غير تقصير منه ، بل إن الأمر هو أنه تأخر لأن الجامعة ــ أي السوربون ــ لم تستطع تعيين أعضاء لجنة المناقشة ، ولم يكن ذلك لها إلا في التأريخ الذي عَيَّنَته ، وهو اليوم الاول من آذار ، وهذا يقتضي أن يكون للطالب حق في مخصصات أربعة أشهر حُمِلت عليه اضطرارا . فلم يكن من السيد نوري السعيد إلا أن سَجَّلَ الاسم وخصوصية المسألة ، ولما عاد بعد أيام الى بغداد جاءت الموافقة الشرعية »[١٠] .

جرت المناقشة ، وكان رئيس اللجنة (ليڤي پروڤنسال) ــ عميد المعهد الاسلامي ــ و (بلاشير) ــ وهو المشرف الذي عُهد اليه أمر الاشراف الرسمي ــ و (شارل بلا) و (لاووست) ، ولم يشارك المشرف الفعلي (كانتنو) بالمناقشة ؛ لأنه لم يكن من أساتذة السوربون . واستمرت المناقشة ساعات ، ومُنح ــ رحمه الله ــ دكتوراه دولة بمرتبة الشرف الاولى.

عاش في باريس سبع سنين قضاها بالدرس والمثابرة ، ولم يتمتع كما تمتع غيره من طلاب البعثة الذين لم تحتج دراساتهم الى جهود مضنية في سبيل إنجازها . ولم تكن له في باريس علاقات وثيقة بالعراقيين إلا بزملائه الثلاثة : علي الزبيدي ، وعلي جواد الطاهر ، وصلاح خالص ، وببعض العرب مثل صبحي الصالح ، وحسن ظاظا ، واحمد السعيد سليمان ، ومصطفى الشويمي ، ومحمد احمد ياجي ، والجيلاني عبدالقادر .

---

(١٠) نفسه ص٢٥٤-٢٥٥ .

(٣)

حزم كتبه الكثيرة وأرسلها بحرا ، وقبل أن يغادر باريس التقى أستاذي الدكتور عبدالعزيز الدوري ـ عميد كلية الاداب والعلوم ـ فكتب الى وكيله أستاذي المرحوم الدكتور جميل سعيد أن يكون الدكتور ابراهيم السامرائي في الكلية لئلا تسعى دار المعلمين العالية الى أن يكون فيها • وغادر باريس ووصل الى بغداد بعد سَبْع عجاف ، وهو يقول : « ما كنت أحسبني في باريس التي كان لها في تصور من لم يرها صور رسمها الخيال البديع ، غير أني ما عرفت هذا ، وإن كان فيها شيء منه ، فليس لي ولا لجمهرة العاملين من طلاب وغيرهم »[11] •

راجع مديرية البعثات في وزارة المعارف ، وأخبرهم أنه حصل على الدكتوراه ، ثم قصَدَ كلية الآداب والعلوم وقابل المرحوم الدكتور جميل سعيد ـ وكيل العميد ـ فرحب به أجمل ترحيب • وفي الثالث والعشرين من آذار سنة ١٩٥٦ صدر أمر تعيينه في الكلية ، وبدأ بتدريس النحو واللغة العبرية في قسم اللغة العربية ، واللغة السريانية في قسم الآثار ، وكان أستاذي المرحوم الدكتور عبدالحليم النجار يدرس اللغة العبرية •

وأراد أن يكمل دينه فعقد زواجه على فوزية في التاسع من نيسان ١٩٥٦ ، ووجد لديها الحب والحنان الذي افتقده منذ وفاة أبويه ، وتعلق بها، وفي شعره ما يدل على حبها واخلاصها له ، قال :

يا فوز أودى بي نجيٌّ الهوى   وضجَّ منه جِنٌّ أوتاري[11ب]

واشتاق اليها وقد فارقها شهرا في تونس :

---

(١١) نفسه ص٢٦٣ •

(١١ب) حنين الى الكلم الضائع ص١١ •

تقول على البَيْن ما أشجعَك
ستمضي فمن لي بأن أمنعَك
ستمضي فهل ليَ أن أتبعك
فقلبي ووجْدي وعمري سُدًى
إذا لم أمتع بعيش معَك
سأهواك حتى تجف الدموع
بعيني وتنهار هذي الضلوع
ملأت حياتي فأنّى التفت
أريجٌ بذكرك منها يضوع(١٢)

وكان كثيرا ما يبثها شكواه ، ويطلب منها أن تقل اللوم والعتابا :

يا أمُ واحدتي شجاني بَعْضُ ما يشجوكِ مني
هو ما يجيشُ من الحنينِ متى تحدَّرَ فيه لحني(١٣)

فقد عانى الكثير في حياته :

يا فوزُ قد عانيتُ من كَدٍّ ومن عَرَقٍ صَبيبِ
أشكو اليك شكاةَ مُعْتَلّ الفؤاد الى الطبيبِ
ماذا عن الأيامِ والأوهامِ والرَّبْعِ الجديبِ
أضغاث أحلام طُوين فأين من هَمْسٍ حبيبِ(١٤)

ورُزقا بأريج وقرت أعينهما بها ، وما أن اكملت دراستها وتزوجت حتى ابتعدت عنه فآلمه ذلك واشتد حزنه على فراقها ، وبثها حبه وحنانه في قصيدة « ابنتي أريج »(١٥) :

---

(١٢) نفسه ص٢٠-٢١ ، وفيه : (يفوح) وهو ما لا يتفق مع الشطرين السابقين .
(١٣) نفسه ص١٢١ .
(١٤) من ملحمة الرحيل ص١٣ .
(١٥) حنين الى الكلم الضائع ص٢٧٠ .

أحِن لهـا حنـين أبٍ حزيـنٍ وأجعـلـه لآلىء في وشـاحي

ورُزقا بعليّ ، فسُرّ به وإن لم يحقق طموحهما ، وفي شعره عدة قصائد وجهها اليه ، وآلمه ما جرى له ولشقيقته :

ولأنت مَع إلْفٍ تَحملَ مَعك من خَطْبٍ وسُوقا
شقيتْ بواحدة أطيحَ بها وقد زهقـت زهوقـا
وبواحدٍ عثر السبيلُ بـه وكـان لها شـقيقا(١٦)

ومضى ينفث زفرات الألم ، وقد هيض جناحه ، وشقي بغربته :

حُوصِرْتَ في ولدي فواحدة أطاحَ بهـا غدورُ
وبقيت يبهظني الوحيـدُ وذاك شـرٌ مسـتطيرُ
لم يبقَ لي إلا التي قـد ضـامها العبءُ الخطيرُ
قد راضها الزّمَنُ البغيضُ فهل يقاويه كسـيرُ
هِيض الجنـاحُ فكيف يرقى مستضام أو يطـيرُ
هـي زوجتي إنّا كلينـا نالنا الزّمَـنُ المبـيرُ
نشقى ويجمعُنا المصيرُ وما يؤوب به الشكور(١٧)

(٤)

في عام ١٩٥٩م كان زميله الدكتور صلاح خالص ـ رحمه الله ـ مديرا عاما للشؤون الفنية في وزارة المعارف خلفا للمرحوم الدكتور فيصل الوائلي الذي أُقْصِيَ ملحقا ثقافيا في القاهرة لاتجاهه العربي ، فعين مديرا للنشر والتأليف والترجمة ، ولكنه عاد الى الكلية لانه لم يجد عملا يستحق التفرغ

(١٦) نفسه ص٦٣٠ . الوسوق الحمل .
(١٧) نفسه ص٦٧١-٦٧٢ . وفي ديوانيه كثير من القصائد والابيات الموجهة الى زوجته وابنته اريج وولده علي ، ومعظمها يلفها الحزن والاسى .

للادارة • وسافر في آذار سنة ١٩٦٠م الى الجامعة التونسية أستاذا لمدة شهر، وحَلَلْتُ مكانه في تدريس النحو للسنة الثانية • وتعرض بعد عودته من تونس للعدوان ، قال وهو يقص الحادثة : « أذكر أني قَصَدْتُ الأعظمية التي كانت مركز القوميين الذين دأبوا على منازلة الآخرين من خصومهم الذين نُعتوا بالشيوعيين أو الشعوبيين أو اخوان اليهود ، وكنت أريد أن أخرج دفترا للنفوس ، كما نسميها في تلك الحقبة من عام ١٩٦٠ • وقد وصلت الى دائرة النفوس ، ولكني ما إن هممتُ أن أدخل حتى فوجئت باثنين من الأشدّاء نالني أحدهم بصفعة قوية طرحتني أرضا ، ثم كانت طعنة من الآخر بسكين في وجهي ، ولا أدري أي أذى شديد قد لحقني من كليهما ، ولا أدري ما سبب ذلك ؟ ولم يكن مني إلا أن استعدت بعض قواي ، وقمت فلاذ الشقيان بالفرار ••• وذهبت الى الدار فَهُرِعَ اليَّ الأخوة وتم إسعافي ، ولم يكن أي مسعى من الكلية في الوقوف أمام هذه الاعتداءات »(١٨) •

وأشك أن يكون العدوان سياسيا لأنه ــ رحمه الله ــ لا علاقة له بالسياسة والوضع القائم يومذاك ، واعتقد أن العدوان ــ ان كان هو المقصود ــ جاء من بعض طلبته لسبب من الاسباب الخاصة ، وان كان الجو يشجع على كل شيء لانعدام الامن وانتشار الفوضى في كل جزء من العراق• وقد ألمح الى ذلك بقوله : « كان منها ذهاب الامن وسيادة الفوضى والاضطراب وسيطرة الجهلاء والسفهاء • وأذكر أن التدريسات أوشكت أن تتوقف ، فالخروج على النظام هو الذي ساد ، وتهيؤ الطلاب للتظاهر واقع كل يوم ، ولا أذكر أنّا عرفنا عملا أيام الخميس ، ذلك أن جمهرة الطلاب تتهيأ بالاعلام والرايات منذ مساء الاربعاء ليخرجوا صباح كل خميس، ولهم في كل تظاهرة حجة ، وما أكثر الحجج • وقد نال أهل الجد من الطلاب

(١٨) حديث السنين ص٣٠٧ ، وكان عميد كلية الاداب يومذاك زميله واستاذي الدكتور مهدي المخزومي •

الويل ، ورموا بالتـآمر على الثورة ، وكـم لحق الأذى بالاسـاتذة الذين استنكروا ما يقوم به الطلاب »[19] .

ولعل هذا من أسباب الاعتداء عليه ـ إن كان مقصـودا ـ لأنه كـان يستنكر ما يقوم به مؤيدو الوضع من الطـلبة حيث الارهـاب والمطـاردة والعدوان بحجة حماية الثورة ، وما كان يرضى عن ذلك ولا ما يفعله زملاؤه الذين كانوا معه في فرنسة ، حيث لم يعمل بالسياسة أو يعتنق غير الاسـلام عقيدة ودينا ، قال : « إن السياسة في عصرنا نار تلظى يصلاها الأشقى الذي ألقى بنفسه فيها »[20] . وأنى له أن يعمل بالسياسة وهو الذي انصرف الى الدرس والتحصيل في باريس ، والى البحث والتدريس بعـد ذلك ، قـال : « فلم تلهني متعة دنيا يسطع برقها ، ولم يصـرفني عما اندفعت اليه نشـاط للطلاب الذين حملوا على سـلوك درب لا تحمـد مغبته ممـا ينـدرج في السـياسة ونحوها »[21] .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيـدة التي أصـيب بها فقد جرح وعولج ولكنه في غيرها كاد يعدم . ففي سنة ١٩٧٠ كانت المشانق منصوبة لأعـداء الثورة والعملاء ، وألقي القبض عليه في ساحة كلية الآداب ، وهرعت لأعرف السبب فقيل لي : إنه يوزع أسلحة على المتآمرين بسيارته الفرنسية (رينو ١٦) فاستغربت وقلت للضابط : لا يمكن أن يحدث هذا منه وهو الاستاذ الجليل والعالم الكبير . ولم يقتنع الضابط ، وأمر الافـراد أن يقيدوه . وكان معي تلميذي عبدالله احمد الجبوري (الدكتور فيما بعد) فذهب معهم واستطاع اقناع معارفه في الجهة الامنية ، وأطلق سراحه مساء .

---

(١٩) نفسـه ص٣٠٦ .
(٢٠) نفسـه ص١٩١ .
(٢١) نفسـه ص١٥٣ .

وانتدب سنة ١٩٦٢ أستاذا في الجامعة التونسية ، وقضى فيها عاما دراسيا ، وعاد الى بغداد في مطلع ١٩٦٣ ، قال : « لقد جئت الى بغداد وأيام بغداد يومئذ محزنة ، فأنت فيها محاصر تخشى أن يُحمل عليك السوء فتتهم بما يوحي السعاة الداعون الى الشر . لقد احتملت واحتمل الطيبون معي ما كان ، وبدأ الجامعيون ـ عفا الله عنهم ـ في تصنيف القوم فهذا وذاك ، وأنا من بعض هذا وذاك من أعداء الثورة ، وليس لاعداء الثورة إلا الموت . وكان ما كان حتى إذا استوفى أهل الشر غايتهم عادوا الى فصل الاساتذة وسجنهم ، وإلحاق الأذى بهم . وكنت ممن سيأتيه نصيبه من السوء بعد انتهاء العام الدراسي ، وكأنهم وجدوا في نهاية العام أنهم أتوا على أصول ما حسبوه شرا ، وهكذا انتهى ما امتحنت به عائدا الى ما كنت فيه من عملي الذي كنت أحسبه وقاءً لي ، ولعل ما أنا مشغول به قد جرّ عليّ الويل حسدا وحقدا »[٢٢] . لقد حدث هذا ولكنه لم يُصب بأذى ، وعاد رئيسا لقسم اللغة العربية ؛ لأنه لم يكن محسوبا على الزمرة وإن كان لهم زميلا .

وقام بين الاعوام ١٩٦٥ و ١٩٧٥م بأسفار وألقى محاضرات في بيروت ، وعمان ، وبنغازي ، والجزائر والرباط ، وانتدِب في منتصف السبعينيات استاذا في جامعة الكويت ، وبقي فيها عاما دراسيا واحدا ، ثم عاد الى بغداد، ولكنه لم يحتمل وضع الكلية فأحال نفسه على التقاعد سنة ١٩٨٠ . قال : « لقد شعرت أنا وجملة من أصحابي يومئذ في مطلع سنة ١٩٨٠ أن البقاء حيث أنا في كلية الآداب أمر عسير ، ذلك أن الكلية قد تحكّم فيها غير أهل العلم ، كان العميد ذلك الذي استطال فيها وعلا وتجبر لمكانه في الحكم ، وأنه أحاط نفسه بأعوانه فتقوى بخيله ورَجْله ... لقد جاء أول تسميته عميدا بشر ابتدعه ، لقد شرع باجتماعات خاصة مع اساتذة كل قسم ، لم يستمع اليهم ، ولكن ليلقي عليهم ، أو ليصبّ زواجر وعظه ونواشز لفظه ؛

---

(٢٢) نفسه ص٣٣٠-٣٣١ .

ينال منهم ، ويحط من منزلتهم ، فمنهم من يَرُدّ عليه ، وهذا قليل ، ومنهم من يَفِر من بين يديه ، يُنحي باللائمة عليهم ويتهمهم بالتقصير ، وأنهم لا يقومون بما كُلِّفوا به من واجبات . وكان العميد — غفر الله له — أن اجتمع بأعضاء قسم اللغة العربية ، وقد كان هو أحدهم ، وبعضهم كان من أساتذته ، ولكنه لم يَرْعَ شيئا مما يعرفه ذوو المروءة فانطلق في تأنيبهم وتوبيخهم بما زعم أنه من عيوبهم ، وانتهى من خطبته غير البليغة لأنها لم توافق مقتضى الحال كما صرح أهل البيان وقال : هل من سؤال ؟ فقال الاستاذ جميل سعيد — رحمه الله — وهو أحد الحاضرين يومئذ، وهو أحد أساتذة هذا العميد : لم يكن من قصدي الكلام غير أني توسَّمت في الحاضرين ، فلم أجد فلانا وفلانا وذكر اسمي ، فحسدتهم أول مرة لأنهم لم يحضروا هذه الجلسة ، وهكذا انتهى الاجتماع »[23] . وتحدث — رحمه الله — عما كان العميد المذكور يقوم به من مراقبة للاستاذة وتهديد لهم ونحو ذلك مما عُرِف عنه . وهكذا انتهت علاقته بكلية الآداب ولزم البيت ، ولكن أنى له أن يظل بعيدا عن التدريس الذي مارسه سنوات ، فقرر الرحيل والاغتراب .

(٥)

كان الاستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة — رئيس مجمع اللغة العربية الاردني — زميله في بغداد وباريس ، وكتب اليه ليعمل في الجامعة الاردنية فرحب به أجمل ترحيب ، وحصل على موافقة العمل خارج العراق ، فتهيأ للرحيل عام ١٩٨٢ ، والدمع في عينيه ؛ قال : « خرجت من الدار متوجها الى

---

(٢٣) نفسه ص٣٤٦–٣٤٧ .

المطار فأحسستُ أن داعيا يستوقفني فالتفت ، وكان لي في ذلك شعر أثبته في أوراقي »[٢٤] . وقال في قصيدته « رحيل فألم »[٢٥] :

أبعادٌ وأنت ماضٍ عجولُ وفراقٌ ومنك صبرٌ جميلُ
عادني هاتفُ الربوع فنجوى قد ترى بينها الحنينُ النبيلُ

ونظم قصيدة « صيحة »[٢٦] وهو في الطائرة بين بغداد وعمان في تموز سنة ١٩٨٢م :

ذاهبٌ انت والهمومُ بواقي وسعيرٌ من وَقْدِها ما تلاقي
وعظيم أنَّ الخطوبَ عِرابٌ أنت من سَعْيها رهانُ السباقِ
حملتني الى الديارِ ليالٍ غالَ من روحها هجيرُ العراقِ

والتحق بالجامعة الاردنية ، وبقي فيها خمس سنوات تحدث عنها في كتبه وشعره ، وكان قد أخلص في العمل ، وهو الاستاذ القدير والعالم الجليل :

حملتُ هَوى الأردن لم أحرمهُ من أدبي
وأخلَصْتُ اليه الدرسَ مما نِلْتُ من طَلبي
وباركتُ له زاديَ ما أوعبتُ من كُتبي[٢٧]

وسمع أن أولي الأمر في الجامعة تحدثوا عن التقشف ، فقدَّم استقالته ، واتصل برئيس جامعة صنعاء الدكتور عبدالعزيز المقالح ليعمل بها ، فرحّب به وغادر عمان متوجها الى اليمن سنة ١٩٨٧م ، وبقي هناك تسع سنين ، وفي كتبه وشعره حديث عنها . وفي شباط ١٩٨٩ ــ وهو في صنعاء ــ جاء الى بغداد للمشاركة في أحد المؤتمرات الادبية ، ولقي صعوبة في العودة ، وقد سعيتُ معه للحصول على تأشيرة الخروج فسافر وهو يردد :

---

(٢٤) نفسه ص٣٥٠ .
(٢٥) حنين الى الكلم الضائع ص٤٣ ، وينظر من ملحمة الرحيل ص١٦ .
(٢٦) حنين الى الكلم الضائع ص٢١٧ .
(٢٧) نفسه ص٧١٦ .

شاقني للديار أمرٌ ذهابي وعجيبٌ قد شقَّ أمرُ إيابي
أنا من ذا وذا غريبٌ أُعاني ما يُعاني ذو غربةٍ من عذابِ[28]

ويبدو أنه لم يستقر في اليمن فراسل جامعة قطر سنة ١٩٩٠م ، وصدر أمر تعيينه فيها وكاد يلتحق بها لولا أحداث الثاني من آب من تلك السنة :

أو شكتُ أرجو أن أفيءَ الى قطرٍ يرفُّ لدوحها فَنَنُ
لكنْ ذا عَصْفٌ قضى فدَجَتْ أرضُ الخليج فزالَ مؤتمنُ[29]

عاد الى عمان بعد تسع سنين قضاها في صنعاء ، واستقر فيها يؤلف وينظم الشعر وينشر الكتب . وكان قد اشترى شقة في عمان خففت عنه تكاليف الحياة ، قال : « عدت الى عمان ، وقد سُعدت بشيء هو أني صرت أملك فيها شقة صغيرة استطعت شراءها مما وصل اليَّ من أخ لي توفاه الله ، فقلت : الحمد لله الذي عوَّضني خيرا عن عمل قضيته في التعليم معلما ومدرسا وأستاذا في مراحل التعليم كلها طوال أكثر من أربعين عاما لم يكن لي إلا اليسير اليسير من الفائدة »[30] . وكان لي حديث معه عن الشقة في آخر لقاء معه في عمان أواخر شهر تموز سنة ١٩٩٧ بعد أن حدثني عن مشكلة الإقامة ، فرجوته أن يبيع الشقة ويعود الى بغداد مكرما معززا ، فسكت ولم يجبني ، وكان ذلك في سكن أستاذي الدكتور عبدالعزيز الدوري الذي استمع الى كلامي ورجائي .

---

(٢٨) نفسه ص٣٧٠ .
(٢٩) من ملحمة الرحيل خس٢٩٢ .
(٣٠) فوات ما فات من حديث السنين ص١٣٧ .

(٦)

توثقت صلتي به ــ رحمه الله ــ منذ سنة ١٩٥٦م ، وكان يعتز بي كثيرا، وقد لمست فيه الخصال الحسنة التي عُرف بها العلماء ، ومن تلك الخصال وفاؤه المنقطع النظير للاصدقاء غير ملتفت الى سلوكهم معه او نكرانهم فضله، وقد عَبَّر عن هذه الخصلة في شعره ، وعن ذلك النكران معاتبا لا هاجيا :

أُناجيكَ لو أدركتَ بعْضَ بياني ... وما ضمَّ من بَوْحٍ نجيٌّ حنانِ
فأنت امرؤٌ من فتيةٍ قد حسبتهم ... ضمانةَ مَنْ يسعى لأيِّ ضمانِ
سكبتُ لهم مني صفاءَ مودَّةٍ ... وصُنْتُ بناءَ المجْدِ أيَّ صِيانِ
وإني لعرَّافٌ ألَمَّ بصَنْعةٍ ... اذا قِيدَ يوم الروعْ كلُّ جبانِ
تقاعس لا مُستَطْعِما لعظيمةٍ ... وما يبتغي ذو طَيِّئةٍ وحرانِ
وكنت أُمَنِّيْ النفسَ منهم أثارةً ... وما أبتغي من خلّةٍ وليانِ
ولكنهم ألْفَوا إنائيَ فارغا ... على حين حطَّ السَّعْدُ عند فلانِ
خفضْتُ لهم مني جَناح أخوة ... ورُحْتُ على جنح عدمت أماني
نصحْتُ لهم لمأدَّخر صِدْقناصح ... ولم أبْلُ أمري مَعْهمُ بدهانِ(٣١)

وكان صادقا مستقيما ، وربما كان ذلك من أسباب نفرة من لا يروق لهم عنه ، فقد كان ــ رحمه الله ــ يتمنى أن يكون للصدق صوت .

فمتى يُرى للصّدقِ في أخلاقِنا صَوْتٌ جهيرُ(٣٢)

وكان يكره النفاق وزيف الكلام :

---

(٣١) حنين الى الكلم الضائع ص١٧٣ ، وتنظر ص ١٩١ ، من ملحمة الرحيل ص١٥٧ .

(٣٢) من ملحمة الرحيل ص٦١ .

ولكني أخوك أخو صفاءٍ تسامى في الإخاء وفي الرِغاب
ولم يَكُ مَنْ تلوَّنَ في وجوهٍ ولا الساعي الى ظفرٍ وناب[٣٣]

وكان زاهدا قنوعا ، لا يسعى الى البذخ وحياة الترف ، وقد سَخِرَ ممن عاب زهده ، بقصيدته « صرفت النفس عن دنيا »[٣٤] .

وكان أبيا عزيز النفس ، فلم أره تقرَّبَ الى ذوي الشأن أو التمس شيئا من أحد ، ولم تَغرّه مظاهر الحياة من مال ومنصب وجاه ، ومن إبائه أنّه رفض أن يتقدم للجوائز التي يعلن عنها ، وأنكرها في نثره وشعره ، واعتدَّ بنفسه ، واعتزَّ بها أعظم اعتزاز[٣٥] وكان انسانا بَرًّا رحيما ، يؤذيه منظر فقير أو محتاج ، وكان يسارع الى تقديم ما لديه ليسد حاجة فقير ، وعوز محتاج . وكان يطوف على دور الفقراء والمحتاجين ويوزع النقود والمواد الغذائية كاللحم والرز والفاكهة الموسمية ، وكنت أصحبه أحيانا في هذه المهمة الانسانية ، وأرى تعاطفه مع الفقراء والمساكين .

وكان تقيا ورعا على خلاف تصور بعضهم بسبب زمالته من ساروا في طريق آخر ، ولكن الذين كانوا على صلة وثيقة به يرون غير ذلك ، فضلا عما بثه في كتبه وأشعاره من إيمان بالله ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والبذرة الاولى في تدينه بدأت في الكُتّاب حيث ختم القرآن الكريم خلال سنتين ، وتعلم طرفا من الأدب الديني فيه الصلاة والوضوء والطهارة ، وما يكون من تمام هذه التربية الدينية[٣٦] . وكان ملازما المسجد ، قال : « لقد لزمت المسجد ، وحافظت على الصلوات ، وكنت أرفع الأذان إن تخلّف المؤذّن بسبب ما ، وأقوم بشيء مما يلزم المسجد كمد البُسط ونحوها في

---

(٣٣) نفسه ص١٢١ .
(٣٤) ينظر حنين الى الكلم الضائع ص٣٢٦ .
(٣٥) ينظر نفسه ص٢٣٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، وينظر فوات ما فات ص١٨٦ .
(٣٦) ينظر حديث السنين ص١٣-١٤ .

سطح المسجد لأداء صلاة المغرب والعشاء في أشهر الصيف ، وكنت أقرأ قسطا من الآي الكريم قبل خطبة الجمعة وصلاتها ••• وقد صمت رمضان في أشهر الصيف وكابدت حمارّة القيظ »[٣٧] • ولم يترك الصلاة وهو في باريس ، فكان يؤم مسجدها ولا سيما في شهر رمضان والعيدين ، ويلتقي العرب والمسلمين ، وكان يحز في نفسه أن لا يرى عراقيين في المسجد • وفي شعره كثير من الاشارات الى إيمانه العميق ، ودعائه الى الله أن يخفف عنه الوحشة، والغربة ، والضيق • وكان شديد الاعتزاز بالقرآن الكريم ، وقد اتخذ من الجموع فيه رسالة الدكتوراه :

تبارك اللهُ حيّانا ببنيةٍ   من الكتاب ولم تلحق بنا أُممُ
وكان منا رسولٌ ذرّ شارقه   هدايةً فامّحت في نورها الظلمُ[٣٨]

إنه سيفيء الى الله الذي سيحاسبه ، ويرجو أن ينال رضاه •

وغدا أفيء الى حمى مَلك يحاسبني كبير
لم أخلُ من عبَثِ الحياة وما ألمّتْ من نكير
لكنني أرجو نعيمَ الخلد من ربٍّ غفورِ[٣٩]

وكان قد سيء به الظن ، وما هو ممن يُساور بدينه وإيمانه الظنّ :

ولقد يُساء الظنّ بي   أني اجترحتُ من الكبائرْ
عفوا فتلك فريةٌ   تُوحي بها شبهاتُ جائرْ
إني لأَسعدُ مؤمنا   بالحق إنّ اللهَ ناصرِ[٤٠]

والشعر الذي يدل على إيمانه وصدق عقيدته كثير[٤١] •

---

(٣٧) حديث السنين ص٢٧٩–٢٨٠ •
(٣٨) حنين الى الكلم الضائع ص٤١٧ •
(٣٩) نفسه ص٦٩٧ •
(٤٠) نفسه ص٥٥ •
(٤١) ينظر نفسه ص ٦٥ ، ٢٣٥ ، ٤١٧ ، ٦٧٣ ، ٧٠١ ، وفوات ما فات ص٢٣ ، ٢٥١ ، ٢٧١ •

(٧)

كان ـ رحمه الله ـ عالما جليلا ، وقد بدأ مسيرته العلمية منذ عهد مبكر من حياته ، وكان يقرأ ما تقع عليه يده من كتب ، ويتابع ما يصدر منها ، وكان انتسابه الى دار المعلمين العالية منطلقا كبيرا فتح له أبواب العلم ، فاتصل بأعلام الاساتذة ، وقرأ في مكتبة الدار ما لم يقرأه من قبل ، وتعلم أصول البحث العلمي وكتابة البحوث ، واتسعت آفاق ثقافته في باريس ، فكان يحضر المحاضرات العامة ، ويعكف في الدار الوطنية على القراءة والتنقيب . وعشق الكتاب عشقا عجيبا منذ صباه وعكف عليه عكوف المتعبد ، وانصرف اليه انصراف الزاهد ، فكان زاده في رحلته ، وصاحبه الذي لا يفارقه ، وسميره ، وإلفه الوحيد ، ورفيقه ، والنور الذي صرفه عن لغط الآخرين :

فأينَ أخي وأين صفيُّ عُمْرٍ ... لقد بانا فملتُ الى كتابي[٤٢]

وقد آلمه أن يترك بعض كتبه في اليمن ، وكانت أبناءه الذين حنا عليهم ، وكانوا له نعم الاصدقاء :

كيف التأسي بعد أبنائي ... أفَسَلْوَةٌ بعد الأحبّاء
عاشرتهم دهرا وكيف هوى ... أنا لم أنله من أخِلاّء
بل نلته من صفوةٍ كرمت ... من طيب أسفار وأجزاء
كتبي وأسفاري علِقتُ بها ... وهي الأحبة وهي أبنائي[٤٣]

وترك مكتبته في بغداد ، وقد أهدتها أسرته الى جامعة بغداد في سنة ٢٠٠٢م ، ونظم قبل وفاته بعام قصيدة « في وداع كتبي »[٤٤] وكان قد رأى

---

(٤٢) من ملحمة الرحيل ص٣٢٦ .
(٤٣) نفسه ص٨٧ .

في الفضائيات رجلا يبيع كتبه في بغداد ليسد حاجة معيشته ، وتخيل أنه ذلك الرجل فقال :

« وكأني اليوم أجد نفسي كهذا الرجل البغدادي أطلق مكتبتي الاسيرة في بغداد طوال عشرين سنة ، وفيها ما فيها من المصادر والمراجع في العربية وغيرها » :

لم يَبْقَ لي غير ما ألقاه من أدبي ... وأين هذا وقد أُبْعدت عن كتبي
غُودرت عما دنَتْ مني وكنت لها ... إلْفا وَصَلَتْ اليه أقربَ النسبِ
عشرون عاما مضت والأسْرُ ينخرها ... والضيم يأسِرُني في سجن مغتربي
أبْعِدتُ عنها ، فلا واللهِ ما فتئتْ ... نفسي نحنُّ لمأسور ومُحتَسَبِ
قد صُنْتها كتبي اللائي شغلت بها ... فرحت اكرم ذي أجر ومحتسبِ
هُنَّ الشقائقُ والخلاّن في كُتُبِ ... وإن تناءت عن أم بَرَّة وأبِ

لقد عَشِقَ الكتاب وشُغف بالبحث والتأليف ، وكانت الكتابة عنده أسمى ما سعى اليه ، وقد جال في ساحة الحرف أكثر من خمسين عاما ، وألف عشرات الكتب ، وحقّقَ وترجم مثلها ، ولقيَ الإعجاب ممن يقدرون العلم ، وأخذوا يسألون لماذا لم يكن عضوا في المجمع العلمي العراقي وهو العضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والعضو المراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق ، والعضو المؤازر في مجمع اللغة العربية الاردني ، والعضو في المجمع العلمي الهندي ؟ وهذا سؤال مشروع ، لأنه ـ رحمه الله ـ كان عالما جليلا واستاذا قديرا .

---

(٤٤) نفسه ص٣٤٤ .

(٨)

بلغ الثمانين من العمر فنظم في أيلول سنة ١٩٩٦ قصيدة « مع الثمانين »[٤٥] ، وكان يتوقع أنه سيموت سنة ٢٠٠١م فنظم في شباط من السنة نفسها قصيدة « في توقع الرحيل »[٤٦] :

إني وقد طال البعادُ أرى شَبَحَ الرحيلِ وليس من صفد
ماذا سأتركُ بعد مرتحلي مما شُغِفْتُ به الى ولدي
غير التي عاشرتُ من كتبٍ وبهنَّ ما قد كان من عددي

ورحل عن العالم الفاني بين زوجته وابنه علي بعد أن عاد من اجتماعات مجمع اللغة العربية في القاهرة في شهر آذار سنة ٢٠٠١م ، ففي مساء الاربعاء الثاني من صفر ١٤٢٢هـ ـ الخامس والعشرين من نيسان ٢٠٠١م اتصل بي هاتفيا من عمان تلميذه وتلميذي الدكتور محمد ابراهيم حور وهو يبكي ويقول: « لقد مات استاذنا هذا اليوم وسيشيع غدا الى مثواه الاخير في عمان » . وعلمت بعد سفري الى عمان أنه لم يَسِرْ خلف نعشه إلا قلائل لأنه ـ كما كان يردد ـ غريب .

(٤٥) الحنين الى الكلم الضائع ص٧٦١ .
(٤٦) من ملحمة الرحيل ص٣٦٦ . الصفد : العطاء .

(٩)

عُرِفَ ـ رحمه الله ـ بكثرة التأليف والترجمة والتحقيق ، وكتبه المطبوعة والمخطوطة هي[٤٧] :

اولا : التاليف :

١ ـ الأب انستاس الكرملي وآراؤه اللغوية .
٢ ـ الأعلام العربية .
٣ ـ بين السريانية والعربية .
٤ ـ تنمية اللغة العربية في العصر الحديث .
٥ ـ التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق .
٦ ـ دراسات في اللغة .
٧ ـ السيد محمود شكر الآلوسي وبلوغ الارب .
٨ ـ العربية بين أمسها وحاضرها .
٩ ـ العربية تأريخ وتطور .
١٠ـ الفارابي وعلم اللغة .
١١ـ الفعل زمانه وأبنيته .
١٢ـ فقه اللغة المقارن .
١٣ـ في تأريخ العربية .
١٤ـ في شرف العربية .
١٥ـ في شعاب العربية .
١٦ـ في مجلس أبي الطيب المتنبي .

---

(٤٧) تنظر كتبه في خاتمة ديوانه الحنين الى الكلم الضائع ، وكتاب احمد العلاونة عن المرحوم .

١٧ـ في المصطلح الاسلامي •
١٨ـ في لغة الشعر •
١٩ـ في اللهجات العربية القديمة •
٢٠ـ قطوف ونوادر •
٢١ـ اللغة والحضارة •
٢٢ـ لغة الشعر بين جيلين •
٢٣ـ مباحث لغوية •
٢٤ـ المجموع اللفيف ـ معجم المواد اللغوية التأريخية والحضارية •
٢٥ ـ المدارس النحوية •
٢٦ـ مع المصادر في اللغة والأدب (ثلاثة أجزاء) •
٢٧ـ مع المعري اللغوي •
٢٨ـ مع نهج البلاغة •
٢٩ـ معجم الفرائد ـ فرائد لغوية قديمة ـ وحديثة من المعجم العربي التليد•
٣٠ـ معجميات •
٣١ـ مقدمة في تأريخ العربية •
٣٢ـ من أساليب القرآن •
٣٣ـ من بديع لغة التنزيل •
٣٤ـ من سعة العربية •
٣٥ـ من معجم الجاحظ •
٣٦ـ من معجم عبدالله بن المقفع •
٣٧ـ من معجم المتنبي دراسة لغوية تأريخية •
٣٨ـ من وحي القرآن •
٣٩ـ النحو العربي نقد وبناء •
٤٠ـ نظرات في المعجم الكبير (مع حمد الجاسر) •
٤١ـ التكملة للمعاجم العربية من الألفاظ العباسية •

ثانياً : التحقيق :

١ ـ أعلام الورى فيما نُسب الى سامراء .
٢ ـ بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية ـ لابن طاووس جمال الدين احمد بن موسى .
٣ ـ تمام فصيح الكلام ـ لأبي الحسين احمد بن فارس بن زكريا .
٤ ـ ديوان ابن الفارض .
٥ ـ ديوان أبي فراس الحمداني .
٦ ـ ديوان الجواهري (مع آخرين) .
٧ ـ ديوان القطامي (بالاشتراك مع احمد مطلوب) .
٨ ـ ديوان قيس بن الخطيم (بالاشتراك مع احمد مطلوب) .
٩ ـ رحلة ابن عابد الفاسي من المغرب الى حضرموت ـ للشريف يوسف بن عابد بن محمد الفاسي (مع عبدالله الحبشي) .
١٠ ـ رسائل في اللغة والادب والتأريخ .
١١ ـ الرماني ورسالتان في اللغة ـ لأبي الحسن الرماني .
١٢ ـ الزهرة ـ لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الاصفهاني (جزءان) .
١٣ ـ سؤالات نافع بن الأزرق الى عبدالله بن عباس .
١٤ ـ السرج واللجام لابن دريد .
١٥ ـ شعر الأحوص الأنصاري .
١٦ ـ شعر عروة بن حزام (بالاشتراك مع احمد مطلوب) .
١٧ ـ الشماريخ في علم التأريخ ـ لجلال الدين السيوطي .
١٨ ـ العين ـ للخليل بن احمد الفراهيدي (مع مهدي المخزومي) .
١٩ ـ فلك القاموس ـ لعبدالقادر بن احمد الكوكباني .
٢٠ ـ في التعريب والمعرب وهو المعروف بحاشية ابن بري على كتاب المعرب للجواليقي .

٢١ـ كتاب الأمكنة والمياه والجبال ـ للزمخشري •

٢٢ـ كتاب النخيل ـ لأبي حاتم السجستاني •

٢٣ـ كشف النقاب في الأسماء والألقاب ـ لابي الفرج ابن الجوزي •

٢٤ـ المتشابه ـ لابي منصور الثعالبي •

٢٥ـ المرصّع في الآباء والامهات والبنين والبنات والاذواء والذوات ـ لابن الاثير •

٢٦ـ المقدمة من كتاب المسائل والاجوبة ـ لابي محمد البطليوسي •

٢٧ـ من الضائع من معجم الشعراء ـ للمرزباني •

٢٨ـ نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ـ للرازي (مع محمد بركات أبو علي)•

٢٩ـ نزهة الالباء في طبقات الادباء ـ لعبدالرحمن الانباري •

٣٠ـ يفعول ـ لرضي الدين الصغاني •

ثالثا : الابداع :

١ ـ حديث السنين ـ سيرة ذاتية ـ عمان ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م •

٢ ـ فوات ما فات من حديث السنين ـ سيرة ذاتية ـ عمان ـ ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢م •

٣ ـ حنين الى الكلم الضائع ـ ديوان شعر ـ عمان ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م •

٤ ـ من ملحمة الرحيل ـ ديوان شعر ـ [٤٨] ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م •

---

(٤٨) لم نذكر هذه الكتب في القائمة ، وقد ذكرت تأريخ نشرها آخر ما صدر له في حياته وبعد مماته ـ رحمه الله ـ ولان بعض كتبه الاخرى طبع عدة مرات •

رابعا : الترجمة :

١ ـ التوفيق بين الدين والفلسفة عند الفارابي ـ للويس جارديه (عن الفرنسية) .

٢ ـ خطط البصرة وبغداد ـ للويس ماسنيون (عن الفرنسية) .

٣ ـ محاضرات في تأريخ اليمن والجزيرة العربية ـ لاغناطيوس جويدي (عن الفرنسية) .

٤ ـ من دراسات المستشرقين ـ لمجموعة من المستشرقين (عن الانكليزية) .

خامسا : المخطوط :

١ ـ الاصوات اللغوية .

٢ ـ تاج العروس ـ للزبيدي (ج ٣٧) تحقيق .

٣ ـ ترويح الارواح ـ لجراب الدولة (تحقيق) .

٤ ـ حوار في التراث والمعاصرة .

٥ ـ رسم الحرف وما يُسمى إملاء .

٦ ـ في التصحيف والتحريف .

٧ ـ معجم الدخيل ـ ما أخذته العربية وما أعارته الى الفارسية والتركية .

٨ ـ معجم مصطلحات الاعلام (عربي ـ انكليزي ـ فرنسي) .

٩ ـ المقترح في المصطلح في تعليم رمي البندق ـ لابن ودعة الشافعي (تحقيق)

١٠ـ مع أبي العلاء المعري .

١١ـ من التذكرة اليمنية (تحقيق) .

١٢ـ من حديث أبي الندى .

١٣ـ من حديث الأيام (سيرة ذاتية) .

١٤ـ نبش الناووس في انتفاضة الراموس (تحقيق) .

الغربة

(١)

الغُرْبَةُ : النزوح عن الوطن ، والغَرْب : الذهاب والتنحي عن الناس ، والنوى ، والمُغْرِب : البعيد عن البلاد ، والتغريب : النفي عن البلاد .

عرف الانسانُ الغربةَ ، وكان لكلٍ مشاعره إزاءها ، فمنهم من سَعِدَ بها وعدَّها مدعاة للتجدد كما قال أبو تمام :

وطولُ مُقام المرءِ في الحيِّ مخلِق لديباجتيه فاغترِبْ تتجدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زيدتْ محبةً الى الناس أنْ ليست عليهم بسرمدِ

ومنهم من شقي بها وأحس بالوحشة ، وحن الى وطنه ؛ لأنه لم يجد في الغربة إلا الضياع والذل كما قال علي بن الجهم :

وارحمتا للغريب في البلد النا زحِ ماذا بنفسه صَنَعا
فارَق أحبابَه فما انتفعوا بالعيش من بعْده ولا انتفعا
كان عزيزا بقرْبِ دارِهمُ حتى اذا ما تباعدوا خَشَعا
يقول في نأيه وغربته عَدْلٌ من اللهِ كلُّ ما صَنَعا

وأخشى ما كان يخشاه الغريب أن يموت بعيدا عن أهله ووطنه ، فلا من يبكيه .

والغربة قد تكون روحية ، فبعضهم يشعر أنه غريب في وطنه وبين أهله وذويه ، وهذه الغربة من أشد ما يُمنى به الإنسان اذ لا تطيب له الحياة ولا تصفو له الأيام ؛ لانه بعيد عن محيطه وفي غير وادي الآخرين .

وللغربة الخارجية دوافع منها ضيق الحياة في الوطن ، وصعوبة الحصول على المعاش ، ومنها السياسة التي تعزل بعضهم عن الحياة العامة فيشعر الانسان أنه غير مرغوب فيه ، أو أنه مطارَد فيهجر وطنه حيث يجد الأمن بعيدا عن القمع والإرهاب ، ومنهم من يحب التجديد فيقيم حيث يجد الحياة الوادِعة الهانئة . ومن الدوافع أيضا ـ العلاقة الزوجية حيث يغترب الزوج من أجل زوجته ، وتغترب الزوجة من أجل زوجها ولكنها تظل في حنين الى وطنها وأهلها لشعورها بالانقطاع عنهم وإحساسها بالغربة بين قوم لم تألفهم فتنكفىء على نفسها مع مرآتها التي تُصلح بها نفسها ، حيث لا تجد من يعينها سوى (مرآة الغريبة) إذ تجلوها أبدا لئلا يخفى عليها من وجهها شيء .

وفي الشعر العربي قديمه وحديثه تصوير لمشاعر الغربة والحنين الى الوطن ، ولا يكاد شاعر مغترب لا يحن ، ولعل شعراء المهجر أكثر الذين عَبَّروا عن الحنين والضياع في ديار الغربة ، وتمنوا لو يعودون الى أوطانهم ليقضوا بقية حياتهم، ويدفنوا في ثراها .

(٢)

لم يكن ـ رحمه الله ـ بِدْعا بين الشعراء ، فقد كانت الغربة أشدّ عليه من الموت ، وقد زخر ديواناه بالحديث عنها وتصوير ما عانى وهو بعيد عن العراق الذي وهبه حياته ، وأخلص له منذ بدأ يتلمس الحياة . وقد حدد الغربة بقوله :

متى غبت عن أهلي وشكلي وصاحبي ... فذاك اغترابي وافتقادُ رغائبي
وإني وإنْ ألوى بيَ البينُ نائيا ... وأعْوَلَ فيه كلُّ اسودَ ناعبِ
وأوشكتُ أدنو من نهاية رحْلَةٍ ... وأبتُ بما لم يجْنِه أيُّ آيبِ
لأرنو الى لقيا الأخلاّء قد مضوا ... وقدصرت من درك النوى اي كارب[1]

(1) من ملحمة الرحيل ٦٧ ، وتنظر ص١٦٥ .

هذا مجمل تصوره للغربة ، وقد أفاض في الكلام عليها في قصيدته « مما قاله مغترب »[٢] فهو ساعٍ الى حاجته ، وأجنبي لا تعترف به الاقطار العربية ، ووحيد ليس له وطن ، ولا أهل ولا صديق ، يقطع عمره في تعَبٍ ، وما من رَحِمٍ موصولة ؛ ولا يعبأ به أحد وقد خوَت الاماني الكاذبة :

أضاقت الدارُ في خَطبي كما اتسعت لرافلينَ بسمْحِ الظلِ من كثَبِ

وكل ما يأمله المغترب سراب ، وريب نوء ، وأن العودة الى الوطن خير وأجدى ، وإن تقطعت الاسباب فسيدركه طيفا يحوم حول العراق ويناجي رمزه النخلة :

ساءَلتهُ هل لذاتَ الطلع من خبرٍ وقد تجهَّم وجهُ الحيٌ في الرحب
!لم تزل سمحةً تؤتي الورى أُكلاً بما تجودُ بمزهوٌ من الرطبِ

ولم يكن شعوره بالغربة حينما هجر العراق سنة ١٩٨٢ ؛ وإنما كان يشعر بها منذ أن كان صغيرا حيث اختطفت المنون أبويه ، وعاش في كنف أخيه الكبير وخالته التي أقامت نفسها مقام أمه ، وغمرته بحنانها ، قال : « نزلت منا جميعا منزلة الأم ، بل كانت أحنى علينا من أيٌ من خلق الله»[٣] ، وقال في قصيدته التي ودَّعَ بها بغداد سنة ١٩٤٨ متجها الى باريس :

هي خالتي ووجدتُها أُمي التي حَدَبَت عليّ وإن حرِمْت رضاعا
ولقد مضيتُ الى الوداع بخافقٍ ينزو فأمسك فوقه الاضلاعا
وهتفت وُقيتِ النوى يا خالتي ووجدتني بالبيْنِ ضِقْتُ ذراعا[٤]

---

(٢) نفسه ص٩١ .
(٣) حديث السنين ص١٣٣ .
(٤) حنين الى الكلم الضائع ص٥ .

شعر بالغربة أول مرة حينما ذهب الى البصرة ليؤدي الامتحان الوزاري للمرحلة الابتدائية ، قال : « كان الامتحان في ستة أيام قضيناها في البصرة ، ولم احتمل فيها مشقة الامتحان وأنا مغترب أول مرة بعيدا عن أهلي »[٥] . وأخذت الغربة تدق بابها بعنف حينما رحل الى بغداد ليدرس في دار المعلمين الابتدائية ، ودار المعلمين العالية ، ويعمل في التعليم . وكان لهذه السنوات أثر كبير في شعوره بالغربة حيث عاش منعزلا عن زملائه لانصرافه الى الدرس والتحصيل ، وبعيدا عن أهله في العمارة . وقد عَبَّرَ عن الغربة سنة ١٩٤٢ وهو لا يزال طالبا في بغداد إذ أرسل بقصيدة الى شاعر الاردن مصطفى وهبي التل (عرار) جاء فيها :

قالوا باربدَ والأردنُّ مَنْبتُهُ — وهل أنا منه إلا بعض مغتربِ[٦]

وشكا الوحشة عام ١٩٤٥ فقال :

اللهَ اللهَ في أساري — ومن أسَى الليل وادّكاري
وحَيْرتي وحشة وضيم — وهل سوى العدم من جواري[٧]

واشتدَّ إحساسه بالغربة في باريس ، وكان انصرافه الى الدرس يخفف منها ، قال : « لقد عرفت الإغتراب يوم الطلب في باريس في سنوات سَبْعٍ عجاف ، ولكني أقول : إن تلك السنوات على ما كان فيها من خطوب كان فيها شيء من لذة ومتعة يأتيان من حياة طالب جرب تجربة العيش وحيدا ، ولكنه يتأسى بما يكون من ذلك لدى جمهرة لا حصر لها من طلاب بلاد الدنيا »[٨] . ولعل ميله الى الوحدة كان يؤجج شعوره بالغربة ، إذ ابتعد عن الناس لما يسببونه من متاعب ، ولأن الضوضاء تزعجه وتكدِّرُ راحته .

(٥) حديث السنين ص٦٤ .
(٦) من ملحمة الرحيل ص١٦٧ .
(٧) حنين الى الكلم الضائع ص٤٨ .
(٨) حديث السنين ص٣٥٣ .

وكان عندما وصل الى باريس قد سكن في فندق صغير بالحي اللاتيني ، ولكنه انتقل الى سكن آخر وجد فيه الهدوء ليخلص الى الدرس ، وليكون بعيدا عن مقهى عامر بالاحداث المنحرفين الذين يثيرون ضجيجا[9] .

ومن أسباب ميله الى الوَحْدة الابتعاد عن الذين تنكروا له ، وهو المحسن اليهم :

شعرت في وحْدة أُنهي بها صِلَةً بمن متى غِبْتُ عنه راح يتّهمُ
وَطَنّتْ نفسي على بُعْدٍ أُجاهدها وكيف يفضي الى بُرْءٍ به سَأمُ[10]

وظل في وَحْدته يرقب البريد لعل فيه ما يسره ويطفىء حزنه :

وأراك مَقْطوعا فلا صِلَةٌ ولا إلْفٌ حبيبُ
ترنو الى نبأ البريدِ وأنت ذو عين رقيبُ
وهل البريدُ بمطفىءٍ حزْنا تعاوره لهيبُ[11]

وكان يشعر بالوَحْدة وهو مع أسرته ، وليت الوَحْدة كانت تؤنسه فترتاح نفسه وتطمئن ، فانها كانت تثير الوحشة والالم بعد سفره الموجع ، وبعد أن غادره الاصحاب وتخلوا عنه :

خطفتني النوى وبي من أساها أرَقٌ ناصِبٌ وليلٌ طويلُ
وعَسيرٌ عليَّ أنَّ جنابي مُوحِشٌ غابَ عن ذَراه نَزيلُ
أينَ صَحْبي تخلف اليومَ صحبي لا حبيبٌ لا سامعٌ لا خليلُ
غادروني ولم أُغادِرْ رسوما وعقابيلَ لا أراها تزولُ[12]

---

(9) ينظر نفسه ص١٤٣ وما بعدها .
(10) حنين الى الكلم الضائع ص٤١٦ .
(11) نفسه ص٧٠٨ .
(12) نفسه ص٢٩٨ . العقابيل جمع عقبول وهي الشدائد ، أو العداوة .

لقد ضاق بالوَحْدة ولقي منها الأذى ، وآلمه البعاد فدعا عليه بالموت :

أذمُّ النوى ويح النوى قتل النوى سعى فيه ذو خطب بزغب الحواصل
وضيمٌ بـه ذو عَوْلَةٍ أيّ عائلٍ وكم غيل ذو بأس بنهـزة غائلٍ(١٣)

لقد عبث به الفراق أيّما عبث وضاقت لياليه ، فماذا كان ؟

لقـد عبـث الفراق وما تولّى وغـادرَ مـن أحَبُّ وما أفاءا
وكم من ليلةٍ ضـاقت فأشجتْ فـلا أرْضا رجوتُ ولا سماءا
ورُحْتُ اری كأني من عـدوٌ بُليت بـه فأحْسَنْتُ البـلاءا
عرفت الليل وهو مجـالُ جِنّ وكم صاحبته يسمو اجتلاءا(١٤)

وظل الاحساس بالغربة يلحُّ عليه ، ويتمثل امامه أينما اتجه ، وكان مـن المؤمل أن يختفي شبحُ الاغتراب بعد عودته الى العراق سـنة ١٩٥٦ وبعـد زواجه في السنة نفسها ، ولكن حزنه القديم الذي بدأ منذ وفاة والديه ظـل يلازمه ويتعمق عاما فعاما ، وأصبح ضيفه الذي لا يريم :

أنا ضيفيَ الحزنُ الأسيرُ يحلُّ في حـرم الشـعور
بيني وبين الضيْفِ من رَحِمٍ رضيتُ به سـميري(١٥)

ورفيقـه أينما سـار :

سِيّان وادعةٌ بعمـان وفي صـنعا لهيـبُ
فلأنت في هـذي وتلك أليف أحـزان كئيبُ(١٦)

وليت حزنه على ما فـات إذن لانتهى الأمـر ، ولكنه حـُزْنٌ يثيره خـوف الغـد :

---

(١٣) من ملحمة الرحيل ص١٤٧ .
(١٤) حنين الى الكلم الضـائع ص١٨ .
(١٥) نفســه ص٦٩٦ .
(١٦) نفســه ص٧٠٧ .

وما حزْني على زَمَنٍ تقضّى		كخوفي أنْ سيأتي ما يضير(١٧)

وكان هذا الحزن يُسَعِّر شعورَه بالغُرْبة ، وهو في وطنه ، لا يكاد يرى الأرض التي درج عليها ، وهو يُجيل عينيه :

أُجيل عيني فلا أرى وطنا		وما غنائي بالدمع إنْ هتنا
لا العينُ مني تُنيلني أربي		وأين هَمْسي أُصبي له الأذنا
أُحِسُّ أني أُبعدت عن عمري		وقد جهلْتُ المكانَ والزمنا(١٨)

كان في بغداد يشعر بالغربة ، وهجر العراق وظلت الغربة تلازمه ، وكانت تؤلمه فيلجأ الى شعره يستعين به على بلواه بعد أن حَمِل على الغربة أو حَمَلَ نفسه عليها :

لعمرُكَ قد حَمِلْتُ على اغترابٍ		غَزيتُ به ولم أكُ قد غَزوتُ
شَقِيت بسعي مغتربٍ كأني		بُليت بما شقيت وما سَعيتُ
دعوتُ مُنىً هتفتُ لها وغابت		كأني ما هتفتُ ولا دَعوتُ
وإني قد نأيتُ على ضِرارٍ		فلم أُصِبِ السَّلامَ بما نأيتُ
عصيتُ هوايَ ليت هوايَ ولَّى		فأُبتُ بخيبةٍ فيما عَضيتُ
ولكني وفيتُ الى أصول		شدوتُ بها ولم أكُ قد جفوتُ
صبوت الى ديار بنْتُ عنها		فيا طوبى لما أنا قد صَبَوتُ
حملْتُ النفسَ يبهظني علاها		مخافة أن أُضيِّع ما بنيتُ
فيا أسفي على ما ذِيدَ عني		ويا خُسْري بصفقةِ ما أتيتُ(١٩)

ويُعيد القول في أنه حَمِلَ على الغربة :

---

(١٧) حنين الى الكلم الضائع ص٣٨ .
(١٨) نفسه ص٥٤ ، وينظر من ملحمة الرحيل ص١٢ .
(١٩) حنين الى الكلم الضائع ص٢٦٦ .

حُمِلْتُ على النوى فيها وما لـي هَوىً بالنازحاتِ من البطاحِ[20]

وعلى تَرْكِ الديـار :

حُمِلْتُ على تركي الديار ولم أكن لأبْعُـدَ عنها وهي أُنْسٌ أو اهلُ
ولم احتملْ غـير المروءةِ حاجـةً أُعِدّ لزادي وهي مجـدٌ ونائلُ
دياري التـي علّقتهـا وسما بهـا الى المجد أقيالٌ وبكرٌ ووائلُ[21]

وفُرِضَتْ عليه الغـربة فرضـا :

ولَغربةٌ فُرِضَتْ وكيف بدفعهـا ومتى وكيف نسيغ ما نتجرعُ
إلفـا لآزمـة خبـرت بلاءَهـا وتصدّ منهـا مـا به تتصدعُ
ما إن شقيتُ بهمهـا حتى دَجَتْ أخرى تواصل في الشقاء وتتبع[22]

وظل يلح على أنّ غربته كانت إقصاءً عن وطنه ، وأن بلاده ضاقت به فقرر الرحيل ، وأنه حُورِب ، وأُكرِه على مغـادرة العـراق[23] ، وما أظـن ــ كما أعلم ــ أن مثل هذا حصل له ، ولكنه كان رقيق المشـاعر حساسا ، وكان يأمل أن يظل مَنْ أحسنَ اليهم مخلصين له ، وأن يجدَ من يقـدّر خلقه المتين وعلمه الغزير ، فلما حصل ما حصل من عميد كلية الآداب ، ضاقت الدنيا به ، فقرر الرحيل ، وكان يظنُ أن للغريب مكانا ، وخـاب ظنه حينما جرّبَ الغُربة ، وعدّ رحيله مأساة ، لأن غريب الدار لا يقوى في وطن :

وكيف يقوى غريبُ الدار في وطنٍ مشى به الخُلْفُ من قيس ومن يمنِ
ضاقت علينا رحابٌ لا يُجـاز بهـا إلا على ملهب من موحش السنن[24]

(٢٠) نفسـه ص٢٦٨ .
(٢١) نفسـه ص٣٢٠ .
(٢٢) نفسـه ص٣٠٤ .
(٢٣) نفسـه ص٢١٠، ٣٢٠ ، من ملحمة الرحيل ص٧٥، ١١٣، ١٣٧ وغيرها .
(٢٤) حنين الى الكلم الضائع ص٥٤٢ . إشارة الى قول أبي تمام :
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب

إنّه غريبٌ في كلّ أرض عربية ، وليس اسم (البلد الشقيق) إلا رُقْية تُرضي الساسة ولا ترضي المواطنين الذين هم غرباء في وطنهم ، وفي الاقطار العربية ، قال في قصيدة « يا غريب الدار »[25] التي أهداها الى الدكتور عبدالعزيز المقالح : « وغريب الدار هذا هو أنت ، وأنا ، وسائر أهل هذا الوطن الواسع من دنيا العرب ، وكلنا فيه نحمل التعب ، وكان لنا مشاركة في الخطب مناضلين أو متخلين » :

يا غريبَ الدار ما الشكوى وهل أجْدَى أنينْ
رُبّما قاريتَ ما يُحْسَبُ كُفْرا وهو دِينْ
وركبت الهول مضطرا ونالتك عيونْ
يا رفيقَ الحزْن ما الحزْنُ وهل أنت حزينْ ؟
نحن أشتاتٌ تفانينا وقد عزّ القرينْ

والغريب مسافر زاده ثقيل :

مسافرٌ زادهُ همومٌ   يموت فيها ولا تَزولْ
يورث منها ذوي مِراس   بعض الى بعضهم رسولْ
سِيم اغترابا وذاك خطب   فهل الى شقوةٍ رحيلْ[26]

لقد شقي بغربته ، وكيف لا يَشْقى والغريب لاجيء :

أنا لاجيءٌ لو كنتَ تدرك بعض فاجعة اللجوءِ
أعَلِمْتَ أني طارىء أو ذُقْتَ داهيةَ الطروءِ
ضيعتُ أحلامَ الصِّبا وشهدت ملحمة الرزوءِ
إلا المروءة لم تزل بيضاءَ لم تعلَقْ بسوءِ

---

(٢٥) نفسه ص٥٣٦ .
(٢٦) نفسه ص٦٤٣ .

وَشَلٌ بعيني لستُ أرخصه وآب الى رُقوءِ
أنا لاجىء عَفّ الضمير فهل وَعيتَ أسى اللجوءِ[27]

وهو أجير :

أأنا الأجيرُ وكيف أدْفَعُ ما يُقال أنا الأجيرُ
أفأنت لا تُعطى كما تَعْطي لقد ساءَ المصير[28]

إنّ الغُرْبة مجاهدة وشهادة لا نزهة يتمتع بها المغترب حينما يكون سائحا أو زائرا ، جاء في الأثر : « إنّ من الذنوب ما لا يكفره الصوم والحج والزكاة ، بل يكفره الهمّ في طلب المعيشة » :

إن كان أمسي حافلا بالرضى فلي أسىً في موحش حاضرِ
وكان يومي أيّ يوم به أَلقى به لظالمٍ ماكرِ
لي في غَدي بغربة وَعْثَة سامَ الهُدى وليس بالتاجر[29]

وظن أنه سيتأقلم مع الغربة بعد أن يألف الحياة خارج الوطن ، وأن يجد الراحة والأمن والطمأنينة ، ولكن هيهات وقد أنكره أصحابه والأخلاء .

لقد سئم من الغربة لأنه لم يجد الراحة في أي أرض نزل فيها ، وغاله السأم :

أُنْبيكَ أني غالني سأمي وبلية أنْ يفتك السأم[30]

(٢٧) حنين الى الكلم الضائع ص١٠٦ . وفي عبارة (وشل بعيني) اشارة الى قول جرير :
إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك لا يزال معينا
الرقوء : الاختناق .

(٢٨) من ملحمة الرحيل ص٥٦ .
(٢٩) نفسه ص٢٦٦ .
(٣٠) حنين الى الكلم الضائع ص١٠٠ .

وسَئِمَ يومه وكلّ شيء ؛ لأن الغربة الطويلة أنسته أمسه وطيبه ، وحملت عليه الضيم :

ولغربـةٌ أنسـتك أمْسِ وطيبَهُ ... وأرتـك رأيَ العينِ غول سُباتها

وحَمَلَتْ عليك الضيم يبهظ عِبْئه ... فأطقته وخبطت في خلواتها

بلهاء نحياها ويجثم ظلّها ... جبلا فكيف نطيق غبْرَ شياتها[٣١]

قد تهون الغربة لو أنه وجد من يألف اليه ، ولكن من كان يمحضهم الودّ تنكروا له سواء أكانوا من العراقيين أم من العرب ، فصرخ :

أأنا العراقيُّ المدفّعُ نيل من كَرَمي وحِلْمي

قد ضامني عصرٌ وأين العصرُ من فني ونظمي

أأنا العراقيُّ المدفّع أين ألقاء ابنَ عمي

أفأنت لي كَذِبا شقيقي قد تقولُ ببعض زَعْمِ

وأنا الشقيق رضيتَ أم تأبى الذي تُبدي برغمي[٣٢]

ووقف يتأمل حياته فاذا بها خسران في خسران بعد أن ظنّ أنه سيجد الدَعَةَ والراحة بين أشقائه العرب ، وأخذ يلوم نفسه على ما اجترحت يوم شدّ الرحال ، ومضت به الأعوامُ ثقيلة :

ماذا صَنَعْتُ بنفسي إذ قذفتُ بها ... فيما تتابع من شر وتأباه

أفي النوازل تَتْرى وهي لاحقة ... أخرى تقرب مما كنت أخشاه

أأتقيها وقد قاسيت وطأتها ... وكم قهرت على مُرّ فأُسقاه

ألِفْتُ في الوحشة الكبرى غرائبها ... وبعضُها ضمّ ما أشجى بفحواه

أبالأحاسيس أشقى في مساربها ... أم بالذي بعض ما ناجيت نعماه

(٣١) نفسه ص٣١٢ .

(٣٢) من ملحمة الرحيل ص١٥٠ .

أمس الـذي كنت أرثيـه وأندبه وجدتنـي اليوم أحيـي منه ذكراه
إني لأذكر منـه بعض مدخر أرضـاه إما مشت للقلب نجواه
ذكرته حين ألنوى حاضر نكـد عـدا علي بما كالته بؤسـاه[٣٣]

وطال به المطاف ، ولم ينل من الغربة غير الألم والشقاء :

وقائلـة مـاذا أصبت بغـربة قذفت بها في كل أوعر شـاسع
وجردت عـن طبـع أبى غير واعد من الخير قد سادته سود الطبائع
فقلت لهـا : إنـي ليحزبنى هوى الى الخـير لا أسـعى بـه لمنافع
ولا أبتغي مـا لا يصـون مروءة متى نيل منها لم أحصن بوازع[٣٤]

وما أوحت اليه من رائع الكلم وبديع الشعر :

أنـا لي بما قضت السماحة حاجة أن لا ينال فناء مجـدي مقذع
وإخال ما اجترحت يداي على النوى سـببا شـقيت به بمـا لا ينفع
إلا الـذي لحق الـولوع بسـريه ممـا شغفت بـه ومثلي يولـع
وحملت مع رشح اغترابي دفقة أسدت الي بما يجود ويبـدع
هي سحر قافية يقوم صرحها كلم وكم يصلاك وجد يلذع[٣٥]

لم تكن هذه الغربة إلا غربة الروح،ومنها الغربة الفكرية التي يعاني منها العلماء وهم بين أهليهم في وطنهم ، اذ يشـعرون بهـا لاختلاف أمزجتهم أو لانصرافهم الى العلم ، أو لما يشعرون به من إهمـال ، أو معاملة سـيئة ، أو

---

(٣٣) حنين الى الكلم الضـائع ص٤٧٨ .
(٣٤) نفســه ص٤٨٥ .
(٣٥) حنين الى الكلم الضـائع ص٥ .

لمواقف فكرية وسياسية مما يخلق فيهم شعورا بالغربة فينكفئون على أنفسهم، وهذه هي غربة الروح التي عبر عنها ـ رحمه الله ـ بغربة الفكر فقال :

أقصِرْ بلاءَكَ في عتابي والطُفْ بمأساةِ اغترابي
وتحرَّ عما بَعْضُهُ مما أُصاحِبُ من عذابِ
لم أشْكُ من بُعْدِ الديا رِ وإن ظمِئتُ الى الرحابِ
سِيَّان أنْ أنأى وبي شَوْقٌ وأشقى في اقترابِ
هي غُربةٌ للفكر غِيلَ بريقُهُ واللمْحُ خابي
شَقيَ اللبيبُ بها وألوى ، وهو منخذل وكابي
هي محنةٌ للاكرمين تحملوا هَوْلَ الصعابِ
وزَوَوا نفوسا من زخارفَ لُفّقَتْ من كل عابِ
عافوا رخيَّ العيش للمستنْفَرينَ الى الرغابِ
واستبدلوا بالسَلْسَلِ الضَّرب المروّق كلَّ صابِ
فاذا تبلَّجَ صُبْحَ يَوْمِ الفصْلِ عن غَبَشِ الضَّبابِ
ألْفيتَ أيَّ بناء مفسدةٍ أُقيم على خرابِ
بئس النعيمُ اذا تخير في الطعامِ أو الشرابِ (٣٦)

(٣)

كان من أثرِ الغرْبة أن علَتْهُ سحابةُ التشاؤم ، وأخذ يشعر بأنه خاسر في حياته ـ وما هو بخاسر ـ وقد عاد بخفي حنين ، وأن الشر قد استشرى وسُدَّت طرقُ الخير ، وخيِّل اليه أنه شريد :

(٣٦) نفسه ص١٣١ .

أأنا الشريد وصَوْتُ أيامي يراجعني ورائي
ونداؤهن يقضّ مَضْجعيَ الكئيبَ وما ندائي
إلا صدى ألفيتُ فيه تعلّةً لولا حيائي
ماذا وهل أضغاثُ أحلامٍ يكون بها عزائي
أأنا الشريد وأين قصْدي والذي أشكو إزائي
هو شرّ أيامي بحاضريَ العجيب فما بلائي ؟
بالآتيات تولستُ أقوَى إن دُلفنَ الى فنائي
ويكون ليلٌ مطبقٌ والنورُ يقبعُ في العماءِ
أيكون بعد الخطب أن أحظى بنفعٍ من رجاءِ
ألباقياتٍ صالحاتٍ إنْ دجا ليلُ الفناءِ
فتشت عن أهل المروءةِ قد تداعوا في الخفاءِ
ورأيتُ دنيا زُينت كذِبا بزخارف من طِلاءِ
يسعى الذين مَشَوا بها ولبئس مَسْعَى في مِراءِ(٣٧)

إن الغريب لاجئ وأجير وشريد ، وكان ذلك يحز في نفسه فجأر بالشكوى المريرة ، لكن لمن يشكو وقد طالت رحلته في المجاهل ؛ ومن يسمع شكواه وقد تفرق الأصحاب :

لمن تشكو وقد طال المسيرَ عشيّةَ لا أنيسُ ولا سميرُ
وهل لك في نضالِك من دليلٍ تلوذُ بهديه أو تستجيرُ
مَشى شبحٌ اليك وهل لليلٍ يفضّ ظلامَه قمرٌ منيرٌ
ومـا حزْني على زَمَنٍ تقضّى كخوفي أنْ سيأتي ما يضيرُ
أجِلْ عينيك في رحبٍ دهاها زمانٌ ساءَ طالِعه مبيرُ(٣٨)

---

(٣٧) من ملحمة الرحيل ص٤٥ .
(٣٨) نفسه ص٢٨ ، وحنين الى الكلم الضائع ص٣٨ .

وليس في الشكوى من جدوى :

أقِلَّ أسىً فما أجدتْ شكاة — يضلّ بشجوها الفَطِنُ الرشيدُ
وإني إذ كَملتُ النفس قسْرا — على ما لا تطيق ولا أُريدُ
لأَحملها على مَضَضٍ وإني — ليوصِلُني بها شَوْقٌ أكيدُ
وَحَسْبك من أسى امسى مُقيما — يُقاسي هولَ محنته الوليدُ
وما حزَن بأقسى من حياةٍ — كأنّ خطوبها مثَلٌ فريدُ(٣٩)

لأنّ شقاءه قديم لا تنفع فيه الشكوى ، وأن همومه قد مشت بعدهن هموم :

شقيتُ وخطبي لو علمتَ قديمُ — وبتُ بما أصلاه وهو حميمُ
أفي خاطفٍ من بارقٍ يتّقى به — !أسىً ليَ منه نازحٌ ومقيمُ
نِلتني بعض الصفح أن أبرح النهى — وقد غلبتني في النضال همومُ
ومن أين لي في بعض حاشية الحجى — وقد يسلب العِلق النفيس حليمُ
تقاذفني في شعْب دنيا حديثُها — وفارقني في الذاهباتِ قديمُ
ألم ترَ اني موحشُ الظلِ عافني — رفيفُ الشذا فانصاح وهو كظيمُ
أأسهر طرفي أبتغي لمحَ بارقٍ — أم الليل ليلُ الضائعين بهيمُ
أم السانحات البارحات مشين لي — هموما مَشَت من بعدهن همومُ
أجَلْ أنا محكوم بصفقة خاسر — وقد يجهل الامر الجليل عليم(٤٠)

كانت الشكوى تلازمه منذ مَيْعةِ الصِّبا ، وهو طالب في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٤٥م :

---

(٣٩) حنين الى الكلم الضائع ص٦٩ ، ومن ملحمة الرحيل ص٥ .
(٤٠) من ملحمة الرحيل ص١٠٢ .

أينقضي العمرُ بانتظار	وأرقبُ البينَ بازورار
مسافرٌ زاده غثاءٌ	من عبث الليل والنهار
تطاولَ الدَّربُ يا شقائي	فهل الى رغبة سفاري
نقمت وعثاء في سبيل	وهولَ ضراءَ من عثاري
قد ضلَّ بي سيئي القرار	وسامني هاتفُ الديار (٤١)

واشتكى عام ١٩٤٦ وهو يستقبل حياة جديدة بعد أن كاد يتخرج في الدار :

كيف أنسى موحشَ الأمسِ وذكريَ وهمّي
أين ألحاني وأين السحْرُ من منضود نظمي
أتحرّى مسرحَ الليل تهاوى فيه نجمي
فنيتْ عند الدجى ما بين ماضيَّ ويومي
أتشكّى الليل ويحَ الليل قد أودى بعزمي
كلّما هيّجني الذكرُ وأمضيتُ بوهمي
وجفاني موجعُ الصبر ولن أدرِك حلمي
ذابَ في كأسيَ خيطُ الفجر في غلوة سمّ
أفأنسى موحشَ الأمسِ وذكرايَ وهمي (٤٢)

وشكا وهو في باريس التي كان الناس يتمنون زيارتها أو الإقامة فيها :

ورجعتُ من أمسي بخائبة الصدى	شكوى تمضُّ ونغمةٌ خرساءُ
ملكت عليَّ وما برمتُ بحكمها	فالذكرُ لفح والهوى برحاءُ
ولقد تهيّمني نوازعَ مؤمن	بالوجد روّتني به حوباءُ

(٤١) حنين الى الكلم الضائع ص٤٨ .
(٤٢) نفسه ص١٦ .

فلزمتـه ذكـرا اذا ازورَّ الهـدى ... وخبـا اليَّ على الصـّراط ضيـاءُ
جوَّدْته ورضـيتُ فيه تـَعـِلّـةً ... وكمـا تحملنـي اليـه نـداءُ
أوَ لائمي إنْ نُحْتُ وارفة الهوى ... فئة تهاوى عندهـا الاهـواء(٤٣)

وشـكا وهو مع أسرته في تونس سنة ١٩٦٠م :

لعمرُكَ مـا تنكـّرَ لي بيـاني ... ولكنـي شـقيت بمـا حبـاني
ولو أني شـركتك بَعْـضَ زادي ... إذَنْ لعلمتَ ايَّ شجى دَهـانى
أبثـكَ انني بَـرمٌ بيومٍ ... رَميتُ وما أصبْتُ وقد رماني(٤٤)

وشكا وهو مع أسرته في بغداد سنة ١٩٨٠ ، ولعل هذه الشكوى جاءت بعد ما رأى من عميد كلية الآداب فآثر التقاعد والابتعاد عن الجو الرهيب :

مضى زمانٌ وما انقضى أرَبُ ... وصاحبي العمر غـُصـّةٌ عجبُ
سُلبْتُ زهر الشباب وأسفي ... لا الجد قد راعني ولا اللعبُ
وما انتفاعي وقد دجـا زَمَنٌ ... وجفَّ عودٌ أوْدَى به عَطبُ
وريـع مني مُرَزَّأً أبـدا ... واهٍ من الضر ناحلٌ خَرِبُ
أنَّى تلفتُ لا ارى رَشدا ... والإلف فان والشمل مضطربُ
نشدت في أمسٍ متعةً عرضت ... خيرا تحـامـاه حاضرٌ جدبُ
فما وَجَدتُ الرفاق في سمري ... وليس في قَضـّهم أخٌ حَدبُ
فتلك دنيا أوْدَت نضـارتها ... فليس بيني وبينها سَبَبُ(٤٥)

---

(٤٣) نفســه ص٧ .
(٤٤) حنين الى الكلم الضـائع ص١٦٥ .
(٤٥) نفســه ص٤٠ .

كانت للشكوى جذور قبل رحيله عن العراق سنة ١٩٨٢ وإقامته في الخارج حتى وفاته سنة ٢٠٠١م في عمان . وشعره في هجرته يطفح بالشكوى وقد تعددت مناحي شكواه ، وأوجعها ما يتعلق بالغربة ، إذ جأر بالشكوى عند وصوله الى عمان ، وكان قد فارق وطنه وزملاءه وداره التي تهيأت فيها أسبابُ البحث والتأليف :

كأنَّ غيابي ساعة البيْنِ مَهْرَبُ ... وما أنا في شيءٍ من العيش أرْغَبُ
ولكنَّ وجداً طافَ بي منه طائفٌ ... يُساورني منه رَئيٌ فأغلبُ
وأغلب إمَّا نازعتني الى الحمى ... رُبوعٌ نأى عني اليهنَّ مَذْهَبُ
عَشية أخفي بعض ما بي من الاسى ... ويرفضُ من لحني شجيٌ فأغْرِبُ
وغادرتُ لا مُستصحبا غير لوعتي ... وللهمِّ ما ألقى وما أتجنبُ
كأني وقد فارقتُ داري لسامعٌ ... من الهَمْسِ ما أخشى وما أتهيبُ
وغادرتُ لا مُسْتكثرا طول إلفتي ... ولا مؤثرا دارا بها أتغرَّبُ
ولكنَّ بي من غُربة الإلْف حسرةً ... ولو قلتُ في شيء لقد طال مَعْتَبُ
رُغبْتُ عن الايام وهي خَوالِفٌ ... يُهيب بها في ساحة العمر مَلعبُ
وأبْتُ الى نفسي بعيدا عن الورى ... تَعِلَّةَ مَنْ اعيا وقد عز مطلبُ(٤٦)

كان ألمُ الرحيل شديدا ، وكانت الغربة تنغر في قلبه وتثير الشجون . ولم يكن أمامه إلا أن يبثَّ الشكوى ، ويناجي البعيد ليشاركه في أشجانه :

يا بعيدا عادني طيفك فاستَصْبى جناني
هالني منه فما يقوى على وَجْدٍ لساني
أنا إنْ أوتيت ما أبلوه من سِحْرِ البيان
لم يكن لي بعضُ ما أدرِكه مما دَهاني

---

(٤٦) نفسه ص٤١ .

يا بعيدا جاوزَ البُعْدُ به طوْقَ الزمانِ
ساءني أن لا أرى في ليله رَحْبَ المكانِ
ليتني أدْرِكُ ما عانيت من هَمْس المعاني
نأردَّ العازبَ التائهَ من حلو الأماني
رابني منه وقد طار به سَمْحٌ عنانِ
ربما أربيت في الظن على صِدْقِ العيانِ
يا بعيدَ الدار ما لي عن لظى البَيْنِ يدانِ
أتخطى صَوْلةَ الأيام أبلوها بمطْلٍ وليانِ
ذَهَبَتْ عني عَشيات وقد هدَّتْ كياني
وخوى عُودُ شبابٍ وخبا حَدُّ سِنانِ
ومتاعي بُلَغٌ من وافدِ الذكرى حواني
أتغنَّى وأخو اللوعة تُصبيه الأماني
غير أني قد لقيتُ الحزْن في سحر الأغاني (٤٧)

والشعور بالغربة يؤدي الى الاحساس بالوحشة ، وهل في الوحشة غير الألم وتذكر الماضي والحنين . وقد تكون الوحشة والانسان بين أسرته وأهليه وأصدقائه ، ويحس أنه في قفر ليس به أنيس ، ففي سنة ١٩٧٩م وهو في بغداد شكا الوحشة مستنجدا برحمة الله التي وسِعَتْ كل شيء ، بعد أن أقفر الدرب وضاقت الحياة :

يا رحمةَ الله أما نفحةٌ جفَّ رَبيعي وذَوى غَرْسي
وأوْحَشَ الدرْبُ فلا سامِرٌ أُصفيه بعض الشيء من هَمْسي
عِمي صباحا يا رِحابَ الهوى هل غير شكوى لأخي يأْسِ (٤٨)

(٤٧) نفسه ص٢٢٧ .
(٤٨) نفسه ص٤٥ .

وفزع الى الهاتف لعله يسمع صوت أخ أو صديق ، وطال الانتظار ، فلا رنين ولا صديق ، لأنَّ حبل الإخاء قد رَثَّ ، وأن الهاتف قد خان :

أمـا آنَ أنْ ينطِقَ الهـاتِفُ   فيشـرِقَ مـن ظلمتـي كاشِفُ
اذا مـا تبـاعد مني الصـديقُ   وغـابَ الـرفيقُ فـلا آلـفُ
فَزِعْتُ الى الهَمْسِ مِن آلـةٍ   كـأني وقـد رُمْتُهـا خـائِفُ
فَحَسْبُكَ مـن وَحْشَـةٍ آلةٌ   ولا مـن نجـيٌ ولا عـارِفُ
نَفَضْـتُ يدي من متاع الغرورِ   فليـس تليـدٌ ولا طـارِفُ
وأُبْـتُ بمـا آبَ ذو ضـلـَّةٍ   وعـن كـل بـارقـةٍ عـازِفُ
لـك اللـّه قد رثّ حبل الإخـاء   ومـاذا وقد خـانك الهـاتفُ(٤٩)

وازداد شعوره بالوحشة وهو في اليمن ، ووجد طريقه قفرا ليس فيـه من يفزع اليه ليؤنسـه ، ويخفف ممـا هو فيـه مـن ألـم ووحشـة بعد أن أزورَّ الصـديق :

تمضي ويُوحِشُكَ الطريق وبمـن تلوذُ ولا رَفيقُ
وبمن تلوذُ وقد تبـاعدَ عنك مُـزْوَرًّا صـديقُ
وظننتَ أمنكَ في الشـقيق فأخْلَفَ الظنَّ الشقيقُ
ومضـيتَ تعْسِفُها خُطى ثقلت وقد طـال الطريق
أفأنـت تبلغ مـا تروم وكيـف ذاك وهـل تطيـقُ
ضاقت عليك رِحابُ أيامٍ ومـا فَتِئَتْ تَضيـقُ
ودُهِيـتَ بالغِيـرِ التي بـك ما ينوءُ ومـا يحيقُ
ترنو الى الشبح القَصيِّ يضـيمه البُعْدُ السـحيقُ
جُرِّدْتَ عن كلٍّ وأنت ببعضـه كَلِفٌ مَشُوقُ

---

(٤٩) نفسـه ص٤٢ .

ولأنــت إمّا جَــدَّ خَطْبٌ يقتضيك بــه خليقُ
هــذاك دَأبُكَ ما حييتَ فلستَ تخدعُكَ البروقُ (٥٠)

ولكن صنعاء لم تستجب لشكاته ، وظل رهين وحشة وانقباض :

متـى آوتـك في صـنعاء دارُ نكِـرتَ لهـا الزمـان فلا مسارُ
وأنت وحيـدَ يومك في انقبـاضٍ سجينٌ لا تَزورُ ولا تُزار (٥١)

وشكا الغربة حينما زار بغداد في شباط ١٩٨٩ ، ولم يجـد ما كـان يأمل أن يـراه :

أنا في شـقوتي طويلٌ عذابي وعسـيرٌ ممـا بلوتُ اغترابي
كنت أصبو الى الديار وقد جئـ ـت اليهـا فمـا أصبت رغابي
سَلْوَتي سَلْوَتي بخيط رجاء لم أجِدْهُ في داجيات الكتابِ
أنـا يممتهـا لأدرِكَ حَجّا في ربوع تزهى بزهر الرحابِ
غير أنـي داريت حَرَّ حنينٍ وكأني أشدو بقفرٍ يبابِ (٥٢)

كان في اشتياق شديد لزيارة بغـداد ، ولكن أمله خاب حينما وصـل اليها ، فبث الشكوى ، وناجى أصدقاءه فلم يسـتجيبوا لندائه ومناجـاته ، ووقف على داره فهاجت الذكرى ، وأحسّ بالظلم الذي وقع عليه ، وبالضيم الذي لحق به ، وعاد الى صنعاء وهو يائس حزين .

وأكثر شكواه من الاصدقاء الذين ابتعدوا عنه ، وآلمه ذلك كثيرا ، لأنه عاملهم بالحسنى ، ولكنهم صدّوا عنه ، وسـلكوا غير طريقه ، وهو العاكف

---

(٥٠) من ملحمـة الرحيـل ص٤٥٨ .
(٥١) حنين الى الكلم الضـائع ص٤٧٠ .
(٥٢) نفسـه ص٣٦٩ ، ووقفت معه حتى استطاع الخروج من العراق .

على البحث والتأليف ، الذي لا يغره عَرَضُ الحياة الدنيا ولا يعبأ بزخرفها وما فيها من مباهج ومغريات ، لقد جفاه أصحابه فأضاع مناه :

ولكنـي أضَـعتُ مناي َ لمـا جفـاني صاحِبٌ وأخٌ وَدودُ
وما شيءٌ من الأشـياء حَشْدٌ ينـوء بحملـه وَجَعٌ وَحيدُ
تنـاهبه مـن الآلام حَشْـدٌ ويتبعهـا من الذكـرى حشودُ
وهل نجـوى يجودُ بها كتابٌ بأمثلَ مـن أخي وِدٍّ يجـودُ
عتبتُ لو انني أسـطيع عتبـا وأين من العتاب أخٌ حميدُ[٥٣]

وتحاماه اللِدات لما وجـدوا فيه من انقباض ومـا عانى مـن نكـران الاصـدقاء :

تحاماني اللـداتُ وحـال بيني وبين عـراهم سَدٌ اكتئابي[٥٤]

لقد وَفَى وأخلص ، وكان يأمل أن يلبوا مناجاته ونداءه لهم ، ولكـن لا حياة لمن تنادي :

أيـنَ منـي مَـنْ أرجيه لأيـام شـِدادِ
أنا إن ناديتُ أصحابي فمـا زِلـتُ أنادي[٥٥]

وبحث عنهم طويلا ولم يجد لهم أثرا :

فتشتُ عن صَحْبي فلم أرهم وحَسِبْتُ أن قد لفَّهم زمن
هرعوا الى عَبَثٍ وما فطنوا والى غُثاءِ السيل قد ركنـوا
مَردوا على شر وقد خُدعوا وعلى رخيصٍ عاجلٍ مَرنـوا
واستمرأوا مالا يُغـلّ لهـم وَفْرا وقد يهب البلى دجن[٥٦]

(٥٣) نفســه ص٧٠ .
(٥٤) نفســه ص٧٥ .
(٥٥) نفســه ص١١٨ .
(٥٦) نفســه ص٢١٢ .

وإذا به يرتـد الى الخيـال :

أخي ناديتُ منك صفيَّ امسٍ — وعزَّ عليَّ أنْ يفنى ندائـي
وأبتُ الى خيالٍ منك ارجو — به رسْـما فأخلفني رجـائي
وما رِفْهٌ نَعِمْـتُ بأطيبيه — بمجد إن خلوت من الصفاءِ (٥٧)

ولا تكاد قصيدة من قصائده تخلو مـن الشـكوى وعتاب الأخـوة والأصدقاء الذين أعرضوا عنه ونأوا ، وكان أكثر شكواه من الاشقاء العرب الذين لم يجد منهم ترحيبا أو صداقة تُبعِدُ عنه الوحشة وتبدد أحزانه .

لقد تولى عنه الأصحاب ، وما كان فظا غليظ القـلب بل كـان بَـرّا بأصحابه مُعينا لهم ، وما كان له وقد أنكروه إلا أن يبتعد عنهم وينصرف الى البحث والتأليف خشية أن تؤذي صراحته من تعلَّم على المجاملة والمداجاة ، ولم أعرِفه مداجيا أو منافقا ، بل فضح المنافقين في حله وترحاله ، وفي كتبـه وأشـعاره :

فأنت أخـي اذا حاولـتَ وَفْـرا — سعيتَ ورُحْتَ ترفل في جنـابي
فإنْ نِلْتَ التي قد جئْـت تسعى — اليها رُحْتَ تنْأى في انسحاب (٥٨)

قد يكون زهده في الحياة وسلوكه غير طريقهم ، وصـدقه وصراحته ، وتمسكه بالقيم الرفيعة ، وطموحه في الحياة النزيهة ، مـن أسـباب جفـاء الأصحاب ، وقد يكون حسدهم له سببا في النفور منه ، لأنهم لم ينالوا ما نال من منزلة رفيعة ، وسمعة حسنة ، وسـمو في الأخلاق ، وترفُّع عن الدنايا ، وهمة في البحث والتأليف :

أذنبـي أنْ سـما أدبـي — وأنْ أشـرَقَتْ في كتبـي

(٥٧) نفسـه ص٩٢ .
(٥٨) من ملحمـة الرحيـل ص١٢١ .

وأنَّ جَريرتي أني جعلتُ العلم مُطَّلبي
وأني قد سعيتُ الى رهان سَعْيَ ذي أرَبٍ (٥٩)

قال : « لقد خبرت ضيق الناس وحسدهم وأنا صبي ، رأيت من لداتي من أبناء رَحمي مَنْ لم يكونوا مثلي،فكان ذلك أن أمست أمهاتهم يُبغضن مني ما يكون من سيرتي وتفوقي في الدرس على ابنائهم ، ورَحْنَ في نكرائهم لما كانت فيه أمي المتعبة طوال حياتها »(٦٠) .وكان مُسْتَهْدَفا فيما كتب وألف، وحمل عليه من تصدى له ، ولكنه لم يحمل شرا لأحد ، قال : « كأنك سئمت هذه الجولة التي عرفتها في سني سيرتي فملكت عليَّ أمري ، وإن كان لي فيها بعض سعادة ، فقد هَزَّني فيها ما حمله عليَّ الخصوم الذين تصدوا لي ولم أحمل عليهم شرا ، ولا سعيت لهم بما يؤذيهم ، ولكني أقول : لقد كانوا إلْبا عليَّ ، ولكني أتشبث بقول أبي العلاء : « فوا أسفاكم يدعي النقصَ فاضلُ » لقد شغلت بالكتب ولزمت خزانتها في العراق وباريس وتونس والاردن واليمن »(٦١) .

وشكا من الزمان ، والشكوى من الزمان قديمة ، وما من شاعر إلا شكا من الدهر ، ولاسيما في صباه حيث تراوده الاحلام والآمال ، فاذا ما عاد الى نفسه وجد ذلك خيالا فيشكو من الدهر الذي نغّص حياته ، ووقف بوجه طموحه وأمنياته . وقد لا يكون الزمان سيئا ، وإنما الناس هم السيئون ، قال ـ رحمه الله ـ : « إن الشاعرَ العربي القديم طوال العصور قد نظر الى الزمان فعابه ، وعاب الليالي التي أعارها ما يكون من دواهٍ وخطوب ، ولم يخلُ الأدب الجديد من الزمان وما حمل عليه من الخطوب ... إنهم عابوا

---

(٥٩) حنين الى الكلم الضائع ص٧١٥ .
(٦٠) فوات ما فات من حديث السنين ص١٢ .
(٦١) نفسه ص٧٣ .

الزمان وأعاروه سَوْأة ، وسلكوا في دأبهم مسلكا فنيا في الإعراب عن سُوء الزمان وسَوْأته ، غير أنك تسمع من فطن الى الامر فأشار الى أن السوء فينا نحن أهل الزمان الذين اقترفوا وما زالوا يقترفون الرذيلة حتى اذا استفحل أمرها ذهبوا الى الزمان . لقد قال أحدهم :

نعيب زمانَنا والعيبُ فينا   وما لزماننا عَيْبٌ سِوانا

أقول : كان كل هذا ، ولكننا مع ذلك ما زلنا نلعن الزمان ونعيره سوآتِنا ، ولذلك كان من هذا ما ورد في الاثر : « لا تسبوا الدهر فأنا الدهر » . وقد يكون لي أن أنظر الى أنَّ شكوى الزمان قد ورثناها لاننا كنا وما زِلْنا نخشى السلطان ولا نجرؤ أن نصرح بما لحقنا من ظلم ، ولم يكن للناس أن يعرضوا ظلاماتهم . وبعد أفلي أن أتلو قوله ـ جَلَّ وعلا ـ : « ونُريدُ أنْ نَمُنَّ على الذين اسْتُضعِفوا في الأرْضِ ، ونجعلَهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » . لقد بسطت بين يدي أبياتي كلماتي ، وها هي ذي الأبيات »(٦٢) .

أذُمّه قد غدا لا كان مذ جَهما   وراح آخرُ ما حيًّا وقد قدما
عامانِ كنتُ بما ولّى حليفَ أسى   تلاه آخرُ لا يرجوه من ظَلما
وهالني أننا ما زالَ يملكنا   مجيءُ عام فنستهدي به كرما

وشكواه من الدهر كثيرة ، قال مخاطبا أم عمرو :

يا أُمَّ عمرٍو حَلَبْنا الدَّهر اشطره   وقد خبرناه أفراحا وأشجانا
فما وجدناه إلاّ في عجائبهِ   ما لم يكن من دواهيه وما كانا
ونحن نشقى بحاليه وليس لنا   مما نصول به إلا نجاوانا(٦٣)

---

(٦٢) من ملحمة الرحيل ص١١٧ .
(٦٣) حنين الى الكلم الضائع ص٢٩٥ .

ودعا على الدهر بالشر لأنه مخادع كذّاب ليس له أمان ، وأنه ممثل[٦٤] ولكن على الرغم من ذلك فانه قال إن الانسان هو الذي خدع الزمان ، وأنه هو الذي سلب النهار ضياءه :

أتعلم أنّا أعرْنا الزمانَ ... خداعا وقلنا هو الثعلبُ
وأنّا سَلبنا بديعَ النهارِ ... سناه وقلنا هو القَيْهَبُ
ومِلْنا الى الليل نشكو الذي ... لقينا من القوم ما يعطبُ
أتعلم أنّ الذي ضامنا ... من الدهر من صنع ما نشغبُ[٦٥]

وشكا من الهاتف الذي تعطل وعاتبه :

أأنتَ للناس هوًى وهاتفُ ... وأنني عنك بعيدٌ خائفُ
أهاتفٌ للناس وضاح الصدى ... وأنت مني بَرِمٌ وعازفٌ
قرَّبْتَ بين نازح ومُبْعَدٍ ... قد فرقت بينهما تنائفُ
وأنتَ لا توصلني بواحدٍ ... قد قرّبت ما بيننا مشارفُ
أصَمٌّ لا تنفك غير سامعٍ ... ومُعْرِبٌ مع آخرين عارفُ
صَوتُكَ في آذانهم مُحببٌ ... وهو بسمعي هادرٌ وقاصفُ
أتارةً عَذْبٌ رخاءٌ ناعمٌ ... وأنت اخرى مرعِد وعاصفُ
كم جئت يوما أتوخّى حاجةً ... وحاجتي منك ضجيج زائفُ
وكم رجعت يائسا من مطلب ... وأنت عن كل وصال صادفُ
لم أتهم سمعي وقد قذفتني ... أحسنَ ما أجاد فيه قاذفُ
أسفت أن ضيعتُ فيك حقبةً ... وإنني على ضياع آسفُ[٦٦]

---

(٦٤) ينظر نفسه ص ٢٩٩ ، ٣٢٧ ، ٦١١ ، ٦٧٢ ، ٧٣٠ ، ومن ملحمة الرحيل ص١٢ ، ١١٨ .

(٦٥) حنين الى الكلم الضائع ص٤١٤ .

(٦٦) نفسه ص٢٤١ .

وبعد أن شكا من العصر ، وضيق الارض على الناس ختم القصيدة بالبيت :

حَمَلْتُ زَادي ومضيتُ راحلا   وصاحبي عزيفُ جِنٍّ هاتِفُ

وفيه إشارة الى أنّ معنى كلمة (الهاتف) في اللغة العربية صوت الجن أو عزيفهم .

وشكا من معاملات الاقامة وما عانى في الحصول عليها ، وهو الأستاذ الجليل الذي قَدَّمَ لبعض الجامعات العربية خبرته وعلمه ، وليس هو الوحيد الذي يعاني من هذه القضية لأنّ كلّ عربي في بلد عربي غريب بل المواطن لا يشعر بالمواطنة في بلده . قال : « فنحن العرب في كل مكان لا نشعر بالمواطنة وأنت لا تشعر بذلك في بلدك فكيف تطلبه في بلدان أخرى »(٦٧) .

آلمه ما لقيَ من معاناة في الحصول على الإقامة ، وحكى ذلك لكل من رآه ، وسجل في سيرته وشعره تلك المعاناة(٦٨) .

لم تَدْرِ أني كلّ عام لَسْتُ آمن في مقامي
أسعى الى طلبِ الإقامةِ والخضوع الى النظام
وأصيب في حَشْدِ الأجانب مَعْشرا في كلّ عامِ
من كُلّ ممتحن قد التزم السبيلَ من الزحامِ
أين الشقيق إذَنْ وكنت أشيد فيه على الدوامِ
وَلَّى لأني الأجنبي ، وأنني بَعْضُ الانامِ(٦٩)

---

(٦٧) فوات ما فات ص١٣٧ .
(٦٨) نفسه ص١٣٨ ، ٢٠٨ ، من ملحمة الرحيل ص٢٢٤ .
(٦٩) من ملحمة الرحيل ص١٦٨ ، وتنظر ص٢٠٨ .

وشكا في قصيدة « التصريح بالعمل »[٧٠] ما يلقاه المغترب من مصاعب للحصول على موافقة العمل ، وأسف على ما يعانيه العربي في البلد العربي :

أنا في ديار كلها وطني   أدعو لها بدعاء مبتهلِ
وأنا بلحمة جِبْلَةٍ لسدى   هذي بهذا أيّ متّصلِ
أنا لا اقول بكل مشرقةٍ   لا ناقتي فيها ولا جملي

وقصيدته « في محنة الإقامة »[٧١] تعبير عن معاناة الحصول على الإقامة ، وشكوى مرة من الواقع المحزن :

ضيّعت في وطني انتمائي في المقام أنا النسيبُ
وأنا الحسيبُ أنا النسيبُ فكيف يُطرحُ الحسيبُ
أأنا البعيدُ الأجنبي وقد يقال أنا القريبُ
ولربما قد قيل لي : أنت الشقيقُ ولا أجيبُ
أسعى وأستهدي البطاقةَ غالها زَمنٌ عصيبُ
أسعى لدائرة الأجانب كل قاصدها حريبُ
أفكلّ عام كلّ مُمتَحَنٍ بمحنته كئيبُ

وشكا من استرداد الهويّة الجامعية :

قل لي بعيشك أين أنت وكيف تَسْلُبني الهُويّه
إنْ رُحْتَ تسلبُ ما علقتُ به فلي نفسٌ أبيّه
وأنا الثري بما ادّخرتُ من الهُويّة والحميّه
ولديّ من وطني الكبير ذخيرةٌ شمختْ سنيّه[٧٢]

---

(٧٠) نفسه ص٢٢٩ .
(٧١) نفسه ص٣١٢ .
(٧٢) حنين الى الكلم الضائع ص٢٢٩ .

وشكا من إجراءات دائرة التقاعد لأنها تطلب كلّ سنة « شهادة الحياة » لتتأكد من أنّ المتقاعد لا يزال على قَيْدِ الحياة[٧٣] .

وشكا من مطارات الدول العربية ، وما يلقى العربي فيها من مضايقات قد تنتهي الى إعادته بأقرب طائرة الى البلد الذي جاء منه.وقد عبَّر ــ رحمه الله ــ عن معاناة دخوله إحدى الدول العربية على الرغم من أنه مدعو لحضور مؤتمر[٧٤] . وشكا من أبناء العم العرب :

أقطعتَ يا ابنَ العم أهلكَ ليت بعضَك مِثْلُ بعضي
أعلمتَ أني دُفتُ زادي اليوم بالألم الممض
وعلمتُ أن سماءك القصوى وأرضك ليس أرضي[٧٥]

وشكا من الأشقاء :

ولئن أخلَّ بي الشقيقُ وشدَّ من طَوْقِ النطاقِ
لأسامحنْ رحما فلا أسعى الى بعض الطلاقِ
كيف السبيل الى الشقيق ودربه درب الشقاقِ[٧٦]

وظل يشكو ــ رحمه الله ــ من الواقع العربي ، وسلوك بعض العرب وتفرقهم ، وما أصاب العراق من دمار وتخريب ، وما يكابده العرب في فلسطين المحتلة ، وما يلقاه العربي حينما يذهب الى قطر عربي . وحق له أن يشكو ، فقد طاف في الوطن العربي وقدَّم لبعض جامعاته والمؤتمرات عصارة عمره ولم ينعم بالتوطن في أيّ قطر حلّ فيه ؛ لأنه غريب :

---

(٧٣) ينظر من ملحمة الرحيل ص١٧٣ ، ٣٠٩ .
(٧٤) حنين الى الكلم الضائع ص٦٧٦ .
(٧٥) نفسه ص١٢٣ .
(٧٦) من ملحمة الرحيل ص١٦٣ ، ٣٧٥ .

ما أنت من مِصْرَ ولا من يمنِ
ولستَ من نجد ولا من عَدَنِ
أنت بكل ذاك ذو حظ غني
أفي العراق الرَّحْبِ مَهْدِ الوطن
أم لك في شآمها من سَكَنِ
ما أنت في سَهْلٍ ولا في أرْعَنِ
بمدْرِكٍ من المنى والمنن
وإن حُرِمْتَ نعمةَ التوطنِ
أأنت نكْر بعض شيء هيّن[77]

لقد رحل ــ رحمه الله ــ وفي فمه مرارة ، وفي قلبه ألم فظيع وحزن عميق.

(77)حنين الى الكلم الضائع ص٣٤٤.

الحنين

(١)

الحنين: هو الشوق وتوقان النفس، ويتصل بالغربة أو الابتعاد عما يشتاق اليه، ويأخذ مناحي متعددة كالحنين الى الوطن الذي يتولد فيه الانسان، ويرضع ماءه، ويطعم غذاءه، ويحيا في رحابه، فاذا اغترب حنّ اليه لأنه أحمى له، ولأنّ أهله أحفى به:

ألا يا حبذا وطني وأهلي ... وصحبي حين يُذّكَرُ الصحابُ
وما عَسَلٌ ببارد ماء مُزنٍ ... على ظمأٍ لشاربه يُشابُ
بأشهى من لقائكم الينا ... فكيف لنا به ومتى الإيابُ

وكان الشاعر اذا ابتعد عن حماه يقول:

تَمَتَّعْ من شميم عرارِ نجد ... فما بَعْدَ العشيَّةِ من عَرارِ

وفي هذا حسرة ويأس من أن لا يرى موطنه بعد يومه هذا.

والانسان مهما كان صبورا يحن الى وطنه، أو المنزل الاول الذي نشأ فيه:

كم منزلٍ في الارضِ يألفه الفتى ... وحنينُه أبدا لاوّلِ منزلِ

وكانوا اذا رحلوا تلفتوا الى الديار التي فارقوها، فان بعدت تلفت القلب:

وتلفتتْ عيني فمذ خَفيتْ ... عني الطلولُ تلفّتَ القلبُ

ويحنّ الانسان الى ما يشغل فكره ، ويتصل بحياته ، فهو يحن الى الحبيبة ، والزوجة ، والاولاد ، والاحفاد ، والاصدقاء ، والى معاهد العلم التي تلقى فيها دروسه :

سقي اللهُ أرضَ العاشقينَ بغيثه ورَدَّ الى الاوطان كلَّ غريبِ
وأعطى ذوي الهيئاتِ فوقَ مناهمُ ومتّع محبوبا بقربِ حبيبِ

(٢)

كانت الغربة تؤلمه منذ صباه حينما ترك أهله في العمارة ، وتوجه الى بغداد للدراسة ، وازداد حنينه حينما فارق العراق ليكمل دراسته في باريس ، وأخذ يتذكر أمه ، وتوالت عليه الهمومُ ، وكان يأمل أن يجد الراحةَ في مدينة النور ، ولكن ما آمله كان :

أضغاث أحلامٍ وقفتُ بها على ذِكَرٍ مَضَيْنَ ولفهنَّ فناءُ

وعاد من أمسه بخيبة أورثته الشكوى المؤلمة ، ولا تثريب عليه إذا ما ناح:

أوَ لائمي إن نحتُ وارفة الهوى فئة تهاوى عندها الاهواء[1]

فأين السبيل الى الوطن ؟

يا ذاكرا بهوى الزمان رضى طالعته من موحشن خشنِ
ضاقت بيَ اللحظاتُ مدبرةً وبرمت بالجنبات والسَّكنَ
كيف السبيل وأين مَدْرَجُه ناءٍ وأين مطالعُ الوطنِ[2]

(١) حنين الى الكم الضائع ص٦-٧ .
(٢) نفسه ص٢٨ .

كان يعد الأيام ليعود الى الوطن ، وعاد الى العراق سنة ١٩٥٦ ثم تغرب، ولكن ظل ارتباطه بالوطن وثيقا وإنْ نأى عنه ، وظل يراه في النوم واليقظة وكأنه فيه :

أنا في العراق وإن نأيتُ يشد آصرتي غيابي
أفحسبيَ الطيفُ الحبيبُ يجولُ في أدبٍ لُبابٍ (٣)

أليس له في العراق رحم ؟

لي بالحمى رَحِمٌ وإخوان ومشتجر الأواصرْ
وخيارُ صفوةِ أكرمين سَمَتْ بهم غُرَرُ المآثرْ
الواهبينَ من المروءةِ ما انجلى عن كلِّ باهرْ
من كل نَدبٍ باذلٍ ما صانه والعِرْضُ وافرْ (٤)

وهو الذي كان يسعى الى الحفاظ على العراق ودرء الاخطار عنه :

ماأراني وقد خَسِرْتُ رحابي أتخلّى عن حكمتي واكتئابي
وكأني قد فاتني أيّ كنز وطن صُنْته وصان صوابي
وأراني قد اقشعرت بي الدا رُ ، وأين مني صحابي (٥)

وكان شديد الاعتزاز بعراقيته ، وقد كرر ذلك في شعره ، وهو يعاني ما يعاني من الحنين الى الوطن ، وظل يلهج بذكراه كلّ حين ، وتمنى أن يعود اليه بعد أن ضاق بالغربة التي أورثته حزنا مقيما وألما عظيما . وهو على الرغم من ذلك أيعود وقد فقد كل شيء : الأهل والأصحاب :

---

(٣) نفسه ص٥٨٥ .
(٤) من ملحمة الرحيل ص١١ .
(٥) نفسه ص٢٩٩ .

آأنتَ الى وطنٍ راجعٌ وكيف يعودُ لك الضائعُ
تلفتتُ هل تسترد الذي فَقَدْتَ وانت له نازع[9]

لقد أحب العراق حبا ملك عليه قلبه ، وناجاه في قصائده ، وبكى على ما ألمَّ به ، وآلمه الحصار ، وغنّى للأسير ، ووقف مع المقاتل العراقي وهو يذود عن وطنه ، ورثى الشهداء . وظلت أخبار الحروب تقض مضجعه وهو في ديار الغربة[7] .

تتجلى صور حنينه الى الوطن في كثير من قصائده ، ولاسيما التي نظمها بعد أن غادر العراق سنة ١٩٨٢ ، ففي أيلول من السنة نفسها نظم قصيدة « حنين ونجوى »[8] ولم تمضِ على مفارقة الوطن أسابيع ، وتمنى أن يعود الى الديار التي فارقها والألم يعصر قلبه ، ولكن أنّى له ذلك وقد رَتَّبَ أموره في عمان ، وبدأ عمله في الجامعة الاردنية :

ضامَ قيثارتي نجيٌّ بخيلُ وجفتني فليس لي ما تنيلُ
وتلمست لم اجدْ غَيْرَ بقيا هي ذَوبُ الحنين لحن ضئيلُ
أيها الرائحُ الحزينُ الى أين يضج الحمى فأين الرحيلُ
قف قليلا أشكوك بثي وما بي من بلاءٍ لو كان أجْدى قليلُ
أحنينٌ وليس فيه شفاءٌ واصطبارٌ وغير صبري جميلُ
وشقائي مما دهاني أني أتعامى وليس يُغْني بديلُ
قفْ قليلا فقد تخلف بعضي ثم ماذا فكلُّ شيء فضولُ
مَنْ مُعيدي الى الديارِ فقد خاب دعائي غداة ألوى السبيلُ

---

(٦) حنين الى الكلم الضائع ص٧١٢ .
(٧) ينظر من ملحمة الرحيل ص١٢١ ، ١٧٧ ، ٣١٨ ، حنين الى الكلم الضائع ص٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٥ ، ٢٣٨ .
(٨) حنين الى الكلم الضائع ص٣٥ ، ومن ملحمة الرحيل ص١٧ .

وبمن أهتدي اليها فقد طا ل انتظاري وأين مني الدليلُ
وكأني طريدُ أمسٍ ويومٍ وامتحاني بالعيش خطب جليلُ
وأراني من رحلتي قابَ قو س خَبَر موحش وركب عجولُ
يا حنيني ويا أنيني أعِنّي فطريقي الى الديار طويلُ
مَنْ مُعيني على البعاد وقد غِيل ربيع وغاب عني خليلُ
كل وجد سوى حنيني يزولُ وحنيني الى الحمى لا يحولُ
وبحسبي إن اقشعر زمان شرف في الذرى ومجد اثيلُ

ولم يهدأ له بال في الغُرْبة ، وهزه الشوق الى العراق :

أأخي همَمتُ وعادني جزعُ المشوق من الفراقِ
وصدفت عنك وهزّني سعيُ الرفيق الى الرفاقِ
أأتاك أني ما برحتُ أشيم غاديةَ العراقِ
ووجدت أيامي شغلن بدارتي خيل السباقِ(٩)

وود لو يطير الى وطنه ليستاف عطره ، ويستف ملح أرضه :

من لي بأنْ أستافَ عطر الارض في حرمِ الديارِ
وبما يَنِيء اليَّ مما قد خلعتُ به عذاري
مَعْ كلِ موفورِ الكرامةِ طاهرٍ عفِّ الإزارِ
أسْتَفُّ ملح الأرض زادا بل متاعا في السفارِ
فلقد أسيت وليس لي ما أبتغيه من اصطباري(١٠)

---

(٩) حنين الى الكلم الضائع ص١٢٠ .

(١٠) حنين الى الكلم الضائع ص١٢٢ .

وحرك ما ألَمّ به من متاعب ومشاق وخطوب شاعريته ، واذا به يحكي وجده وشوقه وحنينه الى العـراق :

شقيت بهـا وقد حملت شـجاها خطوبٌ جاش فيك أسىً صداهـا
حكت وَجْدَ العراق وسـاكنيه وفودُ الهمّ تَوجيف في سُراها
أسيت فمن يُحدّث عـن ربوعٍ ملكْـنَ عليَّ مـن نفسـي هواها
حَمِدْتَ العينَ أن طمحـت وأذنا صَفَتْ فمضيت استجلى نداها[11]

وكان حنينه مرّاً ، قال في قصيدته « الحنين المر »[12] :

لا لـن أصدّ ولي وطـنُ وليَ الحنينُ المـرُّ والزّمنُ
تاللّـه لا ينفـك يشغلني صـوتٌ يسـاورني فأمتحنُ
صوت يُحرّقُ لوعتي شـجنا ولكم وَشَى عن لوعتي شجنُ
وخشيتُ من آتٍ وبي ثقـةٌ أنْ سوف تلقاني بـه محَنُ
أأسيغُ من صـبري مـرارته وأعـودُ منه وصاحبي حَزَنُ
أُنبيك أنـي بالحمى كلِفٌ وبكل مـا يُشجيه مُرْتهنُ
وبخير مـا جمّعت مـن غرر فَنيتْ وبُقيا رحتُ أختزنُ
هي ما أهمّ لخاطـرٍ حَسَنٍ لو كان يُسْعِف خاطر حَسَن
لم يبقَ لي ممـا كلفت بـه في الوجد لا خِلٌ ولا سكنُ

وتصبّاه العراق ، وأهاج حنينه[13] ، ولم تغب صوره عن عينيه وقلبه وروحه:

مَعاذ الهـوى إنّ الحنـينَ لباقي فما ريض لي إلّف وغابَ عـراقي
أنِلْني عـذرا إن لي أيّ لوعـةٍ وتَظلـم إنْ سـيمت بلفح فراقِ
حَسِبْتُ الذي عندي لها من عبارة وقد كان لـي منها لفيفُ رفـاقِ

---

(11) نفسـه ص١٤٨–١٤٩ .
(12) نفسـه ص١٩٣ .
(13) ينظر نفسـه ص٥٩٠ ، ٦٥٦ .

فما أسعفت هذي وتلك ببعض ما تصدّى فلم أحكم عليه وثاقي
تحولت عن ارض فلم يبق لي سوى شخوص أرتني الضيم وهي بواقي
تداعين نحوي واستبقن وكيف بي أرى غرضا يرمى بأي سباق(١٤)

وناجى وطنه ، وتأجج في صدره لهيب الحنين :

وقد يأتي حديث هوى تقضّى مخافة إن يقال هوى حبيب
تناهبه سعير من حنين الى وطن عثت فيه خطوب
ولا أرضى به غزلا ثقيلا يعود به الى عبث نسيب(١٥)

وهزّه الشوق الى العراق :

إني لأشتاق العراق وليس لي عنه بديل
وأصور الأدب الحزين فهل لصيحاتي قبول
من مبلغ عني الربوع بأنني نعم الرسول
ومن الذي يرعى ويسمع ما تئن به النخيل
إن غيض لي ماء بدجلة أو جفا النسم العليل
أو شف ماء للفرات بما تخوله مذيل
فأنا المقيم على الاسى ويكاد يحرقني غليل
من أين لي في بعض مضطربي ومغتربي مقيل
وأكون في كنف الديار يعودني الرفه البليل(١٦)

وكان يتألم لما أصاب الوطن من محن ، وتمنى أن يعود الى العراق

---

(١٤) نفسه ص٦٧٩ .
(١٥) من ملحمة الرحيل ص١٤١ .
(١٦) نفسه ص٢٣٠ .

لبشارك إخوانه في همومهم ، وليقضي واجبا ، ويخفف ما به من لواعج الشوق والهوى والحنين :

أقِلْني فقد نازعتني رؤى | أراني نسيت حديثَ الرؤى!
هَمَمْتُ الى الامس ابغي الزما | نَ أُسائِله أين زَيْنُ الورى
فقدناهمُ ففقدنا الهدى | وكانوا بكل به يُقتدى
هَمَمْتُ الى الامس ابكي العرا | قَ وماذا يُعيد اليَّ البكا
فلي من هواه هوى حارسٌ | لقيت به فسحةً من حمى
لو انني أطيق اليه الرحيلَ | لكان اليَّ جليلُ السُّرى
!قِلْني فقد نازعتني رؤى | هَوَى خفَّ لي بوجيع الغنا
به أتملّى انحسارَ النوى | وقد اطمئن بحرِّ الشَّجا
فوافت اليَّ قوافٍ وَعَتْ | هوايَ وزادت أليمَ الجوى
ليَ الويلُ إمّا بدأت الرحيل | وكيف بعمان أُلقي العصا
ولكن حَمِلتُ على ناصب | سعيت اليه أحثُّ الخطى
قسوت على غُرْبة غضةٍ | فكنت عليها شديد القُوى(١٧)

وكان في شوق عظيم الى الاهل الذين ليس له بدل عنهم ، وخلد الى نفسه في ليل عمان ، وتصور أنه ليل العراق ، لما في نفسه من شوق الى الوطن الحبيب .

وحيا شعب العراق الذي وقف بوجه المؤامرات والعدوان ، وهزّته أخبار الوطن التي كانت تصل اليه :

ماذا تجيبُ وقد أهمّكَ سائِلُ | ومشت اليك مصائبٌ ومسائلُ
يلقاك في خبر الديار كئيبةً | فتنال منك بما تنال منازلُ

(١٧) نفسه ص٨٠–٨١ .

لـك بالعـراق وأين ذاك صـحابة ضـيمت وأخلقها الزمـان الحائلُ
وهـمُ ضماد القلب حرّقه الاسى ولأنت مـن هـذا وذاك تساجلُ
وأراك يبهظـك البعيد وأنت في حَرَجٍ وللأمـل المخيّب حـاملُ
ويكـاد يغلبك الحنين وهل سـوى قبس ترددَ فيه هَمْسٌ قاتلُ (١٨)

ولجأ الى الهاتف ليسمع الاخبار عن الوطن والاهل والجار :

سـلامٌ هاتفَ الـدار أمـا وافتـك أخبـاري
وماذا عـن حديث الأهْـل والجـارة والجـارِ
وعن سـاعينَ للمجـد عليهم قَبَسُ الغـارِ
أعِنّي أنْ أقاسي البُعْدَ في شجوي وتَذكاري
أعِنّي يا رعـاكَ اللهُ أن أسـمع سُمّاري
وأن أدْرِكَ ما قـد فـات من همـي وأوطاري
أغثني من نجيّ الليل يُذكي لَهَـبَ النـارِ
أيَنفضـي غبشُ الفجـر الـى جَلْـوةِ أنـوار
وهل لي أن أشـيد بما شـقيت بسمح أشعاري
أعِدْ ذِكْـرَ الأباة الصـيد مَنْ جادوا بايثارِ
بُناةِ الشـرفِ الباذخِ يَوْمَ الخَطْـب أحرارِ
بنفسي حقبةٌ قـد ضـاع فيهـا أيّ معطـارِ
أُجـلّةُ المؤمنـين الغرِّ سـاروا خـير تَسـيارِ
وأكبـرِ صـفوةَ البـاقين منهـم أيّ إكْبـارِ (١٩)

---

(١٨) حنين الى الكلم الضائع ص٧٠٥ .
(١٩) من ملحمة الرحيل ص٢٦ .

وظل ينتظر البريد ليعرف أخبار الاهل في العراق ، ولكن من غير جدوى:

هل الى بعض صفوة من تلاقٍ — خان ما أبتغي بريدُ العراقِ
أبريد نجوى وهل بعض إلف — ذ يد عني فليس لي بعض باقِ
شفني هوى أنا منه — هالك أي ذي صدى أي ساقِ
أبحسبي مني أردّد منها — ربما ربما يكون تلاقِ (٢٠)

وأرسل الى العراق رسالة وإنْ عزّ البريد :

وتارة رحم هنا وهنا وقد عزّ البريدُ
وهمُ كرام البيت يحرس رحبه منهم جنودُ
قد بت أستبكي النشيد فما استجاب لي النشيدُ
أنا للعراق وكلهم أهلي وقد ضيم الأسودُ (٢١)

وآسى على أهله وما أصاب العراق من خراب ، وصرخ أين الأهل الذين ذاقوا العلقم ، وما برح يشجى كلما ذكرت أرض السلام :

أجيل عيني فلم أحمَدْ مسيرتَها — وأين مني طماحُ السمع والبصرِ
وأين أهل سقَوا كأسا بعلقمها — وأين منهم معينُ السلسل الخَصرِ
إني لاهتزّ وجدا كلما ذُكرتْ — أرضُ السلام ولم أدرك بها وطري
أرملتُ عيني فلم أسعَدْ ببارقة — تلوحُ بل اخطأتْ عيني بها نظري
لم يبقَ غيرُ قوافٍ بات ريّقها — نزْرا فاستلّه كالنبع في الحجر
وقد غبرت زمانا أستجيد بها — غواليَ الفكر في سِمْط من الدررِ
غَنيتُ فيها ربوعا قد توزعها — كرائم الغرس من نبت ومن شجرِ

---

(٢٠) نفسه ص١٤٩ .
(٢١) نفسه ص١٥٤ .

يا نَبْتَ بارقةِ الامجاد ما فَتِئَت   بالكبر ترفل بالافواف لا الكبرِ
ويا أميرة شطيها اذا برزت   اليك ادركتَ معنى السّحر والخفرِ
تحيةٌ كلما رَدَّدْتها طربا   مشت اليّ نسيما بث في السحر(٢٢)

لقد كثرت أسفاره وطالت غربته ، ولم يزر العراق ليشفي غلة قلبه ، وكان يسأل نفسه هل يعود الى الوطن ، ويجيب أنه لا يطيق ، وذلك العراق شغله الشاغل ، وحزت في قلبه آلام الغربة وحرمانه من رؤية وطنه :

فيا وطنا شُغِلْتُ به بعيدا   ودارتْ بي الى فَلَكٍ شجوني
شقيتُ به على لجّ عتي   كأني قد مرنت على سفين
فهل يُجدي الانين بلفح شكوى   وكيف وقد تملكني حنيني(٢٣)

وَهَمَت به الدنيا وتقطعت الأسباب ، ولم يجد له حمى الا مجمع اللغة العربية الاردني يأوي اليه بعد أن ضاقت به الارض بما رَحُبت وهو يطوف في الغربة :

كيف أحثُّ الخَطْو للمجمعِ   وأين مني خَطوةُ المُسْرِعِ
وليس في الأردنّ مِن موضع   يا بؤسَ منزوعٍ عن الموضعِ
لم يَبْقَ إلا بعض ركن به   آوي به في كنف المجمعِ
أحيز عني غامرٌ عافه   غيري وهل في القوس من منزعِ
أذي مُنى يا خسر ما أبتغي   من ضله في عُمُرٍ مُوجَعِ
أليس رُجْعَى لي لدنيا الحمى   في وطن أُلفي به مهجعي(٢٤)

---

(٢٢) حنين الى الكلم الضائع ص١٤٠ .
(٢٣) من ملحمة الرحيل ص٢١٨ .
(٢٤) من ملحمة الرحيل ص٢٤٩ .

(٣)

كل مَن حنّ الى العراق حنّ الى بغداد التي لها في قلوب الناس أجمل الصور وأبهاها ، وكان ـ رحمه الله ـ قد أحبها وهو فيها ، وحن اليها وهو في ديار الغربة ، وكان كلما قرأ في مدحها شعرا قال : « وكيف أهلوها اليوم وقد عظم الخطب وساءت الاحوال »(٢٥) .

كان في سنة ١٩٥٢ بباريس ، وكانت الوثبة قد وقعت في تشرين ذلك العام ، وأغلقت الكليات ، وأعلنت الاحكام العرفية ، وتلبّد الجو السياسي واكفهر ، فانطلق يعبر عن وجدانه الوطني بقصيدة « الى بغداد »(٢٦) تخلص فيها الى الحديث عن نفسه ، وغربته ، وشوقه الى مدينة السلام .

تَحِنُّ ويُصْبيك تذكارها ... ربوعٌ تهزّك أخبارُها
تمر بقلبك لفح الهجير ... حِرارا يؤجج سَعّارُها
أبغدادُ إني غريب نأى ... بأرض تباعدُ أقطارُها
ليوجعني أنّ لفح السعير ... وقودُ اللظى فيه أزهارُها
يُعاودني طيفها طارقا ... فتنزع في النفس أوطارُها
وتفلت مني أنشودةٌ ... تفيض من الهمّ أشعارُها
وما ذاك صوت القنوط المذلّ ... اذا النفس أذْعَنَ خوّارُها
ولكنّ نفسا بلاها الاسى ... شجيٌّ القصائد مضمارُها

وبثّ أشواقه وحنينه في قصيدة « أتقول ذي بغداد »(٢٧) بعد أن عاد منها الى صنعاء في نيسان ١٩٨٩م(٢٨) :

---

(٢٥) فوات ما فات ص٢٠ .
(٢٦) حنين الى الكلم الضائع ص٢٩ـ٣١ .
(٢٧) نفسه ص٣٧٧ .
(٢٨) تنظر القصائد التي قالها في بغداد في حنين الى الكلم الضائع ص٣٦٩ وما بعدها .

أتقول ذي بغـداد تجتـذب القلوبَ ولا أراهـا
وتقول ذي أُمُّ الحواضرِ قد تسامَتْ في علاهـا
أفتلك حاضـرة السـلام وقـد تملكني هواهـا
أتقول هاتيـك التي سـعد الزمـان بها وتاهـا
يَمَّمتُ ألتمسُ السـبيل فقادني وجدا شذاهـا
ولكن مـاذا كـان ؟
ونزلت فيها لستُ في أهـل كأني في سـواهـا
وجهلت منها ما هُرعـت الى قديم مـن ثراهـا
وكأنَّ عيني لم تَعُدْ تُلْفي المعـالمَ من رؤاهـا
ضيعت حاضرتي فلسـتُ الى وديع مـن حماهـا
وحزنتُ من حُزْنِ الرياض كأنما ترثي جَناهـا
إني لأنعم في غضـارتهـا ويفجعني أسـاهـا
أسْيان يمنحني الحنينُ أسـى ويلهبـه لظاهـا
أحببتها وعدلت عن فقـد الصـديق الى رضاهـا
وظننت إنْ عـزَّ الصـديق فلي بديل في غناهـا
أروى إذا رويـت وأظمـأ إنْ ألمَّ بهـا ظماهـا
إني وقد رُمْتُ العسير وجال في نفسي شجاهـا
لأذودُها عن كـل موحشـة وأنأى عن قذاهـا
فاذا خلصـت لها وللأرض السـلام فذا مناهـا
وتراءى له نهرا دجلة والفرات ، فقال :
ذمَّ المنـازل بعـد منزلة الهـوى فربيعها الذاوي حبيبُ
وربـاع دجلـة والفـرات وما سَـجا غصـنٌ رطيـبُ

لم أنسَها مهما خبا من سِحرها وجفا جديبُ
فهوى بمنزلتي حبيب ، وهوى به نشْر وطيبُ[29]

والتقى في عمان عربيا عائدا من بغداد ، فتنسم أنفاس بغداد التي حُرم من رؤيتها زمنا طويلا ، وتداعت الصور والأحداث أمام ناظريه وفي أشواق قلبه ، واستنكر همْسَ الحديث الذي لا يُفهم والكلام الذي لا يُفضي الى الحقيقة :

أخي في العروبة ما بالنا ... نجمجم فيها ولا نُعْرِبُ
مشتْ بالعروبة عنقاؤها ... وقد راح يُرجى لها مغربُ
أخي جئت ارض العراق التي ... حباك بها الأهلُ والمرحبُ
حُبيتَ بها يوم رفّ المعينُ ... وفيرا بما يُؤكل أو يُشربُ
ورحْتَ وقد فُزْتَ من وفرها ... وقد ذيد عن أهلها طيبُ
لك الطيّبُ المستجاد الذي ... به ما يَطيب ويُستعذبُ
وفاتك أنّ الأباة الكرامَ ... يسيغون في الخسف ما يجشبُ
يرون صغارا كزغب الحواصل ... خُمْصِ البطون بما يعصِبُ
فماذا تعالج أمٌّ لهم ... وكيف يضيق بضيم أبُ
أخي في العروبة ضاق السبيل ... وتاه الدليلُ فلا مذهبُ
وألوى زمان نَعمنا به ... فما درّ ضَرْعٌ فهل يحلبُ
فذا خطبنا واقشعر الزمان ... وصوّح من ربعنا مُعْشِبُ
فهذي الديار فمن مشرق ... الى مغرب ساء ما يُنسبُ
أُنبيك أنّا هجرنا الديارَ ... وما كان في هجرنا مَهْرَبُ
وشالت نعامتنا في البلاد ... كأنْ لم تصِلْ بيننا أحقبُ

(٢٩) من ملحمة الرحيل ص٢٦٥ .

وإنّا (كتاركة بيضها) وراحت على غيرها تحدبْ
وسُدَّتْ علينا جهات الدنى وسِيم المجاهدُ والمتعبْ
أعَوْدا الى الدار تلقى السبيل بما صين فينا وما يُنجبْ
وإني وإنْ ضامني لافح ليسلس مني الهوى الاعذبْ(٣٠)

(٤)

في عام ١٩٨٢ أزِف الترحل الى عمان ، وتهيأ للسفر ، وحزّ في نفسه وهو يودع داره التي عاش فيها عشرين عاما فماذا قال في هذا الموقف المؤلم : « في التهيؤ للرحيل إثارة لأسى لا أطيقه ، كان عليّ أن أنقل كتبي الى غرفة في الدار ، استعنت بغيري على رَزْمها وإلقائها في الغرفة حتى كان منها أكداس ، وقد حشدنا في غرفة بعض متاع الدار ، وتركنا شيئا الى قريب لنا يسكن في الحي نفسه . ثم أذن موعد الرحيل فتركنا الدار ... خرجت من الدار متوجها الى المطار فأحْسَسْتُ أنّ داعيا يستوقفني فالتفت ، وكان من ذلك شعر أثبته في أوراقي ، فهل لي أن أنال كما صنع غيري من النقاد من الحماسي القديم في قوله :

تلفتُّ نحو الحيّ حتى وجدتني وجعتُ من الإصغاء ليتا وأخْدعا

... وأعود الى مأساة الرحيل التي شعرت فيها أنني أقصد التيه ، وسيكون لي وجود آخر أنا الذي جَرَرْتُ على نفسي فأكرهتها على الضيم ، والغريب عن أهله مغبون »(٣١) . هذا ما كان من أمر رحيله ، وقد ترك

(٣٠) من ملحمة الرحيل ص٩٨ وما بعدها . جشب الطعام : غلظ . جشب الرجل : ساء ماكله .

(٣١) حديث السنين ص٣٤٩ وما بعدها .

داره خالية بعد أن كانت عامرة تأنس بساكنيها ، وكما حنّ الى العراق وبغداد وتمنى أن يعود ليستاف عبير الوطن ، حن الى داره التي ودّعها وقلبه يخفق ألما ونفسه تتقطع حسرات :

أقولُ وقد تابعتُ قولَ حليلتي — وقد كان لي منها جهادُ الحلائلِ
تحدّتْ معي كلّ الصعاب حفيةً — بما عرفت بين النساء الأصائلِ
وكانت مُعيني وقت ضعفي وعدتي — متى عرضت لي واقشعرت مراحلي
وقلت لها إني بما كان من جوًى — لما أنا من أمّ اللغات الفواضل
وما رُحْتُ في دأبي وجديَ قاصدا — ومُستقربا آثار تلك المنازلِ
ليعطفني للدار أهْلٌ ومرحبٌ — فَقَدْتُ بهم ما كان من زين نائلي
ويحزنني إخوان صِدْقٍ تركتهم — فلم يُغنني شيئا بريدُ رسائلي
وأذكر أني قد تلفتُ مرسلا — الى الدار عيني والحمى والخمائلِ (٣٢)

ودّع أمْسَهُ برحيله ، وها هي داره تسأل عنه :

بأبي وأمي الدار تهتف وهي تدعو أين ربي ؟
أين الذي يرعى مسالكها ويعمرُ كلّ دَرْبِ (٣٣)

وتشكو فراقه :

تركت أمسي وعندي من بوائقه — ما رحت في طيفها بعض المساجينِ
تركته فانضوت حيرى وشاكيةً — دويرةٌ لم تُطِقْ جنّ الدواوين
فإنْ تخلّفَ بي من صوتها لحنٌ — عدلت عما به سِحْرُ المجانينِ
شيعت هجرة آمال خدعتُ بها — كأنها اذ تركت الدار تدعوني (٣٤)

---

(٣٢) من ملحمة الرحيل ص ١٤٦–١٤٧ .
(٣٣) حنين الى الكلم الضائع ص١٢٢ .
(٣٤) نفسه ص٣٨٩ . البائقة : الشر ، الداهية .

وداره في شارع فلسطين في الجانب الشرقي من دجلة ، والى ذلك أشار بقوله :

ودّعتُ شرقيّ الديارِ دُويرةً وحَفِظْتُ منها نشوة المستافِ
ومضت يعود اليك من تذكارها همٌ يروعك منه في الأطيافِ
هبطتْ عليك تُطل في الأعطافِ ويحوم ملتهب على الأفوافِ
وتهمّ أنت وأنت في طيف سرى أنْ تَسْتَبِدَّ من الجنى بقطافِ
غادرتها وبدأت رحلة مُتْعَبٍ يصبو الى روحٍ من الإسعافِ
وهتفت لو جادت عليك أثارة ولأنت في ضيق ببعض هُتافِ
ولقد دُهيتَ بما أقضّك شقوةً وبما أصابك من صدىً وجفافِ (٣٥)

وتذكر النخلة التي زرعها في داره وأجرى حديثا معها ، قال في مطلع قصيدة « من حديث النخلة »(٣٦) : « كانت نخلة لي غرستها في حديقة داري ببغداد قبل أكثر من ثلاثين سنةً ، ونشأت وشبّت وربت وآتت أكلها رطبا جنيا . وكان لي أن فارقت بغداد الى عمان قبل أكثر من اثني عشر عاما ، وانقطعت عن الدار وما فيها ، وبقي لي من أمر نخلتي أثر أتصوره على البعد. وقد كنت بقرب هذه النخلة ليلة الثاني عشر من ربيع الاول ١٤١٣هـ ، وكان لي لقاء فيما يراه النائم من أطياف . حدثتني نخلتي طويلا وشاركتها الحديث، وكان من ذلك أن شكت ظلم الزمن وفقر الأرض ، والعسف الذي لحق بها جراء ذلك ، وقد طما الخطب وأجدبت الأرض ولحق بالنخلة وسائر الشجر وجمهرة كل حيّ العسر والضيق . حدثتني عن الناس الذين شملهم الخطب من أهل الفضل والعلم وغيرهم من المكدودين ، وتلك نازلة ينزلها الناس بأنفسهم بما كان لهم من ظلم . وها أنا أوعب حديث النخلة وما كان بيننا في هذا الموزون المقفى الذي وجدته أرحب صدرا من جديد أخذ القوم به

(٣٥) نفسه ص٤٤٥ .
(٣٦) حنين الى الكلم الضائع ص٦٣٧ وما بعدها .

فضاع الكثير من شدوهم في الكلم الجديد » . وتحدثت النخلة بأسى عميق بعد أن فارقها غارسها وتركها وحيدة ، ليس من يُعنى بها :

أمسيتُ أضيَعَ ما أكونُ فلقد دجا العصرُ الحزينُ
أنا نخلةُ الوادي فهل وافاكَ من خطبي شجونُ
أنا نخلةُ البلدِ الخصيبِ بكته من شَجْوٍ منونُ
واستصرخت من جدْبِ حاضرها السُّهولةُ والحزونُ
بيني وبين الأرْضِ آصِرَةٌ هي الحبلُ المتينُ
رَحِمٌ ألوذُ بها وإنْ نال الحمى زمَنٌ خؤونُ
أنا عَمَّةُ المُستَشفعين كما روى الأثرُ الامينُ
إني لسيدةُ المكان الطهر والعِلْق الثمين
قد ضاق بي أهْلٌ فهلاّ ضاقتِ الأرضُ الحنونُ
وقد أقشعرَّت حيث أبصرها كما اضطربَ الجنينُ
حتى كأني نالني من بعض ما ضِيمت أنين
ولئن شقيتُ بما حَبَوْتُ لها لقد هاجَ الحنينُ
أنا نخلةُ الوادي فهل لي أنْ أكونَ ولا أكونُ
قد كان خَطْبٌ أنْ يجفّ بنا الزمانُ فلا يهونُ

لقد بثت النخلةُ وجدها وشوقها الى غارسها ، فناجاها :

يا نخلتي أنا منك ذو وَجْدٍ تناهبني رَهينُ
بي مثل ما بك فالأسى قَدرٌ لنا وبه نَدينُ
أُخفي الذي لا يُستطاع وقد يحزّ بيَ الكمينُ
ولأنتِ صارعْتِ الزمان وغالكِ العهدُ الضنينُ
وأنا الذي حُمِّلت من خطبٍ فما نكلت شجونُ

أفنخلةَ الوادي شقيت كما قضى قَدَرٌ مُهينُ
لأراجعنَّ اليك أيامي فيصدقني يمينُ
سعيا تبرُّ به اليمين ولا أُراني أستكينُ
لأنالَ يومي وهو من مرمى يدي وغدا يحينُ
فأديرُ عاصفةً بنفسي حين يحكمني سكونُ

وتمنَّى وهو في الغربة أنْ يسمع همس داره ونخلته :

واجهت موحشةَ الديار فمن معيدٌ هَمْسَ داري
أني لأعقد بين نخلتها وبين هوى حواري
أستَنْفِدُ طاعتها على نأيٍ وهل لي من خيارِ
يا ليت أني قد وجدْتُ حسانةً تبهي ثماري
وأنا المغذّ الى العراق وأنني حامي الذمارِ(٣٧)

واتخذ من النخلة قناعا ليتحدث عن نفسه :

إنْ أوحشتْ نخلتك المعمره	وراءها أسى الرباع المقفره
فهل بأخرى بسقت فارعةً	فَرْعٌ يناديك بتلك الشجره
لا لم ينلك من جنى خيراتها	وهي لإهليها قطوفٌ خيّره
أأنت في الفروع بعض طارىء	وأنت للأصول عين مبصره
أقصر فما انت تريد حاجةً	وهل ترى يأتيك منها ثمره
وهل الى رَحْب الفراتين الحمى	في وطنٍ هو الرياضُ العطره
حسبك أني ليس لي من روضة	حيزت لقوم وبهم مزدهره

(٣٧) من ملحمة الرحيل ص٢٧٥ . الحسافة : القشر ، حسف التمر : نقاه من الحسافة .

أُنبيك أني قد هويتُ صاحبي ولم يكن مني بشيء أثره
أهزُّ جذع نخلتي ومُعْسرٌ من يبتغي جنى بنخل معسره[38]

ولم تُنْسِه التُربة وهو في السويد داره ونخلته :

تركت الذي ما نالني بادّكارِه سوى لوعةٍ من بعض ما أنا حاملُ
وما حيلتي فيما عَدِمْتُ وصولهُ وكيف أحثُّ النفسَ أني واصلُ
مُنيزلة لم اتخذ من وريفها ملاذا وحالت دون ذاك حوائل[39]

وكان يسمع حديث النخيل وهمس الاشجار ، ويشم رائحة الرياض وهو بعيد :

غامت فكيف الى الرحيل صُوَرٌ وأين رؤى السبيلِ
يَممتُ أرضا لم تغِبْ عني وبي وَجْدي دليلي
فسمعتُ باسقةَ النخيل يضيمه شَجَنُ النخيلِ
ووعيتُ رافلةَ الرياض تئنُ في ظلٍ ظليلِ
وشممتُ رافهةً شجاها خَفْقُ مُخْضَلٌ عليلِ
ونشدتها في شَجْوِ هاتفةٍ وفي فَنٍّ أصيلِ
فرأيتها حَسناءَ رفَّ بحسنها وَهَجُ الخميلِ

ولكن ماذا حدث بعد رحيله :

بغداد أومأ بعضُ لَمْحٍ من سنايَ الى أُفولِ
وأرَى اللواتي بِتُّ أسقيهن صِرْنَ الى ذُبولِ
أصوَيْنَ من لفحِ الهجير فكيف بالزمن الطويلِ

(٣٨) نفسه ص٣٢٩ ، في قوله (اهز جذع نخلتي) اشارة الى قوله ـ تعالى ـ « وهزي اليك . بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » (مريم ٢٥) .
(٣٩) حنين الى الكلم الضائع ص٣١٩ .

إنـي لأبصرهـن قـد نوّحـن للركـب العجـول
أفلي وبعـد الخمس والسـتينَ مـن أمـلٍ ضـئيلِ (٤٠)

وكان قد غرس زيتونة في داره ، وحكى شكواها كما حكى شـكوى النخـلة ، قـال :

« كان لي حديث قديم مع النخلة تحدثنا معا ، سمعت حديثها واستمعت اليَّ ، وقد كنت في داري في بغداد فكان ذلك فيما يرى النائم ، وهـا أنـا استمع لشكوى زيتونتي المباركة التي انطقت شاكيةً بائسةً تعرض أمرهـا كما تتأسّى لما نال النخلة ، فقلت وقالتا(٤١) :

عمي صباحا نبْعةَ الأصائلِ ... جـادك غيثي ووفاك نائلـي
رزئتُ من زيتونةٍ ضيمت بما ... ساء وما بي من زمانٍ ماحلِ
طرقتُ ليلي وهو يغتال السنا ... بشق عـود وبجيـد عاطـلِ
أأنت مَنْ بُوركت في ميمونةٍ ... للذكر من آي وفي فواصـلِ
قالت وما ظنك في مَرْزُوءةٍ ... فمـا عليها كل خطـبٍ هائلِ
لم أنسَ أمسي كنت فيه ذاندى ... جود ويا طيبَ سماحٍ بـاذلِ
فأين مـن ليلـيَ ما غنمتـه ... أمسِ ولا الصبح بسعد جافلِ
طويتُ عمـري وأنا اشـتاقه ... وكيف والغصنُ بلونٍ حائلِ
فقلتُ كفي كيف بي في عاصف ... وكيف أخفي دمعتي في جائلِ
أنا الذي ودّعتُ مني بائسـا ... سري بأعياءٍ وجرْمٍ ناحلِ
حملت زادي ليس لي في بعضه ... مثل الذي يحمل أيّ راحـلِ
تركت للـدار هـوًى كأنّه ... حنينُ حرّان لخطبٍ حاملِ

---

(٤٠) حنين الى الكلم الضائع ص٣٥٩ وما بعدها . اصوت النّخلة : يبست .
(٤١) نفسـه ٧٤٠ وما بعـدها .

أُقسم بالآي التي قد كرمت بالتين والزيتون والأصائل
وبالضحى يَسْطع والليل اذا يغشى وبالكرام والأماثل
وبالتي تاهت بطلع وافر كأنما لُفَّ بشف رافل
لأنت مني كل طيب نافل نيل ويا لهفي لظل شامل
وأنت من قصدته بنائلي وكان هديي منك في نوافلي
عيمي صباحا بسماح عامر وسعتنه قبل زمان باخل
جادك مني كلُّ ما قد صنته ما كنتُ لم أغن له بطائل
ألمْ تري ما خانمن وحش الدجى وغال رفْها في حمى المنازل
فلا الضحى في سكب لون بارق في موحش للربْع غير آهل
ونثٌ من زيتونتي نفْحٌ به بعضُ الذي أفدته من حاصل
قالت : سئمت الليل في اطوائه وحشٌ تصدى ليَ غير باسل
أخنى على ضعفي وهل لي قدرةٌ أعطي سخي الزيت بعض آكل
رأيتُ أهلي ظلموا بجائر من زمن صلَوه غير عادل
قد شغلوا برث عيش غامر يا بؤسه من موجع وشاغل
وهالني في جارة ما هالني أن لقيت في الكدّ كلَّ هائل
سيدة قد نال منها زمنٌ من باسقات شخنَ أو فسائل
ألي غدٌ أستافه عبق الندى وأين ذا وقد دَهتْ رسائلي
متى وأين الدار تُلفي أهلها وأين من احيائنا الأواهل
قلْ لي أما أنت لأهل آيب أنِلْ جوابا ضام كلَّ سائل

واستمرت المناجاة بينه وبين الزيتونة المباركة ، وهي كالنخلة التي اتخذها قناعا ليتحدث عن نفسه وما عانى من غربة :

عفوا رماني عنك يا زيتونتي ... ما حاق بالنخلة من مشاكلِ
ومعضلات شملت أهل الحمى ... يا خسر ما عانوه من مسائلِ

ودخلت النخلة في الحوار والشكوى مما أصابها من القنابل والنيران :

وقالت النخلةُ هل من عالمٍ ... أراه لا يؤمِنُ بالقنابلِ
تلك التي حزت رؤوس صحبتي ... لا الطلعُ منضودٌ ولا عثاكلي
أبصرتُ لا العرجون في تيجانه ... ولا الجنيُّ الحلو من فواضلي
ما البصرةُ الفيحاء إلاّ وطني ... وفي ثراها طفحتْ جداولي
إن أنس لا أنس التي في جودها ... بورك في بغداد من خلائلي
وقالت الاخرى مشى في جمعنا ... فاجعةُ الخطوبِ من زلازلِ
قلتُ وقد ادركتُ سبق رحلة ... منحتها همَّة راجٍ آملِ
مشى بي الطيف فلم ابصر سوى ... وجودَ إنسان لقلب حاملِ

كان حنينه الى الديار يثير في نفسه الألم ، وكان يرى الوافدين الى اليمن يعودون الى ديارهم ، أما هو فالى أين يعود ، وقد نأت عنه الديار :

خفَّ الأُلى شاقهم همٌّ لأسفارِ ... كُلٌّ الى داره من أين لي داري
أُقصيتُ عنها وبي مالا أبوحُ به ... وقد تسام على بَوْحٍ لأسرارِ
يكاد هَمْسُك يُبدي جُرح خافية ... وكيف تقوى على لفحٍ من النارِ
ترنو الى البعد هل يُدنيك من نفرٍ ... لم يبقَ منهم سوى مشبوب تذكارِ
قد ذِيد عنك بعيد الطيف لا خبرٌ ... عنه وأمسى الكرى من بعض أخبارِ (٤٢)

نأتِ الديارُ فكيف يعود :

---

(٤٢) حنين الى الكلم الضائع ص٧١ .

نأتْ داري وجفَّ بنا زمانٌ وغادَرَنا المليءُ من السحابِ
ولا داري متى ينجاب ليلٌ عن السهْلِ المؤزَّرِ والهضابِ
فألقيه وقد مدَّت عليه سنا أوْضاحها خُضْرُ الروابي[٤٣]

(٥)

ولم يقتصر حنينه الى العراق وبغداد وداره ، بل حنّ الى باريس حينما زارها سنة ١٩٩٣ ، وتذكَّر أيام شبابه فيها ، وبثها أشواقه على الرغم مما عانى فيها وهو طالب بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ :

بالامسِ شيعت الشباب هنا وورِثْتُ منه الوَجْد والمحنا
وهنا بباريس التي شهدتْ ما رَثَّ من يومي وما وَهَنا
ودَّعت في باريس مضطربا وبدأت آخر لا شذا وجنا
ولئن أسيتُ مع الشباب لقد غُودرت يغمرني الصفا زمنا
من قبل أيامِ الشباب ولي بُقيا لهمْسٍ نَدٍّ أو كمنا
أصبايَ من قبل الشباب وبي من بعض ما قد راق أو حَسُنا
ولّى فملتُ الى الشباب أسى قاسيتُ منه حسرةً وضَنى
قد كان في باريس منه وما عانيته ومضيتُ مرتهنا
ولقد أتيتُ فكان من قَدَري أن طاف بي فلك بمن ظعنا[٤٤]

ومضى يتحدث عن ذكرياته ويبث شكواه ، ويتحسر على ما فات ، وهو في ذلك لم يبعد عما اتسمت به قصائده من شكوى وحنين .

---

(٤٣) من ملحمة الرحيل ص١٢٢ .
(٤٤) حنين الى الكلم الضائع ص٦٨٠ .

الشجون

(١)

الشجون جمع (شَجْن ـ بفتح وسكون) وهو الشعبة والطريقة ، وليست جمع (شَجَن) ـ بفتح الجيم ـ بمعنى الحزن ، والمراد هنا الفنون أو الموضوعات التي تطرق لها ـ رحمه الله ـ غير الغربة والحنين ، مما سبق الكلام عليهما .

ومن شجونه موقفه من الأمة العربية وقضاياها ، وهو العربيّ الصليب الذي ينتمي الى العشائر العربية التي تقطن سامراء وما حولها . وقد ظل محتفظا بلقبه نسبة الى سامراء وإن وُلِدَ في العمارة وقضى صباه فيها ، ولم تنسه الأحوال المتقلبة التي مرّ بها العراق عروبته ولم يتنكر لها ، وكان يردد :

وطني بلاد العُرْبِ هم أهلي بمجدهم التليدِ
فهل الطريقُ بهم يصيب طرائفَ المجد المجيدِ
وهل التي يَتشوّقون فيها ما يُشير الى سعودِ
وأنا الذي استعجلتُ ما أخشاه من عُمْرٍ فقيدِ
ليَسُرني لو رُحْتُ ألمحُ مطلع الأملِ السعيدِ
أو أنّ دارا بات يحرسها ذوو رأيٍ رشيدِ
أنا لي الى الوطن الحبيب هَوَى نظمت به عقودي
أشتفّه وأنا الضعيف فأحتسي عَبَثَ الوليدِ [١]

(١) حنين الى الكلم الضائع ص٤٩٦ .

وعلى الرغم من تنكر بعض العرب لأشقائهم وعدّهم دخلاء وأجانب ، إلا أنّه لم يعبأ بموقفهم ، لأن بلاد العرب كلها وطنه :

أنا في ديارٍ كلها وطني أدعو لها بدعاءِ مبتهلِ
وأنا بلحمة جِبْلَةٍ لسَدى هذي بهذا أيّ متصلِ
أنا لا أقولُ بكل مشرقةٍ لا ناقتي فيها ولا جملي[٢]

وكانت كلمة (غريب) تصدمه فيصرخ قائلا بألم :

لقد ضَيَّعْتُ إخواني وما الخلاّن خلاني
وهل لي في جوار العُرْبِ مأوى لي بأوطاني
أما فيهنَّ لي نَسَبٌ وعِرقٌ نابضٌ دانِ
أألقى الدار حاليةً وأرنو نَخْلَ بُسْتاني
بنفسي لو أُعيدُ لها رواءَ الخضرة الفاني
فألقي جلوةً في الدَّوْحِ في فَرْحَةِ أغصانِ[٣]

اعتزَّ بقومه العرب كل الاعتزاز ، فهم الشعبُ الطيبُ النقيُّ الذي كان له دورٌ عظيم في حمل رسالة السماء ، وبناء الحضارة الوارفة التي استظلت بها الشعوب .

الطيبون نقاءُ الصبح يدفعهم للمجد تسطع في الجلّى مآثرُهُ
أولاءِ قومي صميم العرب مَعْدِنهم وهم اذا الخطب ناجاهم مفاخرُهُ[٤]

---

(٢) من ملحمة الرحيل ص٢٢٩ .
(٣) نفسه ص٣٣٩ .
(٤) حنين الى الكلم الضائع ص١٦٩ .

وافتخر بانتسابه الى العرب :

هي العروبةُ كم أشدو بها رَحِما جذّاءَ أو بعض سحْر خاب ساحره
إني لأحملُ عِرْقا طابَ مغرسُه ولي من الحلم ما اوحت خواطرُه[٥]

ووقف على واقع العرب الحاضر فآلمه :

إني أُحدّثُ عن قومي وحاضرِهم وكم أسيتُ لما يُشجْي من العبرِ
عن الأُلى عركوا الأيامَ مظلمةً وآخرين على وَعْثائها صُبُرِ[٦]

إنه واقع لا يرضى به مَنْ آمن بأمته :

فيا أمةً ضِيمتْ بليلِ شقائِها وطوّح فيها صادقَ الفجر كاذبهُ
ترامت الى السوّأى فما ردها هدى وقد يفضحُ الإفكَ المزوّقَ جاذِبهُ
تُعلل بالأوهام وهي شقيةٌ وكم يغتلي في جاحم الظن صاحبهُ[٧]

وآلمه الخُلْفُ بين العرب وسيطرة الاقليمية والتنكر لكل عربي غير مواطن ، وقصيدته « على لسان (س) من خلق الله » تعبر عن هذا الواقع ، فقد خدم أحد الاطباء بلدا عربيا عشرين عاما ، ولما طلب الحصول على جنسية ذلك البلد رُفِض طلبه ، في حين أن الدول الأجنبية تعدّ هذا مغنما لها وتوثيقا للعلاقات والمصالح المشتركة .

وآلمه « شبح الحدود »[٨] المفروض بين الدول العربية ، وكان بدوي الجبل قد صرخ قبل أكثر من نصف قرن :

---

(٥) من ملحمة الرحيل ص١٧٩ .
(٦) حنين الى الكلم الضائع ص١٣٨ .
(٧) نفسه ص٢٧٧ .
(٨) حنين الى الكلم الضائع ص١٤٣ .

ليس بين العراقِ والشّامِ حَدٌّ هَدَمَ الله ما بَنَوا من حُدودِ[9]

لم تهدم الحدود وإنما شيد سد يأجوج ومأجوج بين الدول العربية ، وأصبح التنقل بينها صعبا ، والحصول على سمة الدخول أشدّ صعوبةً :

أأظل أرسُفُ في قيودي وأبيتُ يفجعني قَصيدي
وأروح أرزح في شدائدُ دونها طِئنة الحديد
وأُجيل عيني في الفسيح الرحْبِ من أرْضِ الجدودِ
فأرى دياري قد تغوَّلَ أمْنَها شَبَحُ الحدودِ
وأرى الفسيحَ الرَّحْبَ ضاق بما احتواه من سدودِ
شبح شقيت بظله في كل حاضرةٍ وبيدِ

وظلت قضية تفرق العرب تشغل فكره وتحز في نفسه ، وصورها في قصائده أصدق تصوير ، قال مخاطبا استاذه أبا زيد الدكتور عبدالعزيز الدوري :

أبشِرْ أبا زيدٍ فأثْلَتُنا غيناءُ لم ينحت بها نَهِمُ
ضاقت بنا الارض الفضاء فما وصلَتْ وشائج بيننا رَحِمُ
أحببتها وطنا وقد عميت منا السبيلُ وأوْحشَ اللقم
ووجدت أهلي أمةً شقيت بالخُلْفِ فانتصبت بها أُمم[10]

وكان يؤلمه أن يكون العربي غريبا في وطنه وبين أشقائه ، وأن يكون يتيما تتقاذفه موائد اللئام ، ولو اتحد العرب وأصبحوا دولة واحدة أو جمعهم ميثاق شرف كما فعلت معظم الدول الاوربية لتحطمت الحدود وانقضّت

---

(٩) هذا البيت من قصيدة لمحمد سليمان الاحمد (بدوي الجبل) قالها في تابين الملك غازي عام ١٩٣٩ .

(١٠) حنين الى الكلم الضائع ص٢٠٨ .

السدود ، وأصبح العربي مواطنا في أي قطر عربي يحل فيه . وكم رُفع شعارُ الوحدة ، ولكن كان كلاما لإرضاء الجماهير العربية ، وقد كشف ـ رحمه الله ـ زيف هذه الشعارات :

ونأيتَ عن وطن بدا لك واحدا   وأسأْت ظنَّك لا تُذا ببديله
كلٌّ يهمّ بوحدةٍ عربيةٍ   وملاكها قَدَرٌ ضوى بضئيله
وحسبت أنك في فسيح ربوعه   في كل ركن منه بعض دخيله[11]

واذا بشعار « بلاد العُرْبِ أوطاني » لم يتحقق ، واذا بأحلام المنادين به يصبح سرابا في بلقع ، وصيحة في واد . وليت الامر وقف عند هذا ، وإنما تقطعت الأرحامُ بين الأشقاء :

وأولاءِ من قومي وقد قطعوا   رَحِما تحيَّفها هَوًى جحدُ
يا وَيحَ من رُحْتُ أحْسبهُ   بعض ابن عمي وهولي نكدُ
وشجا بحلقي لا أطيق له   صبرا وأين الصبر والجلدُ[12]

وما ذلك إلا لأن بعضهم كان يُماري ويرتدي لكل حالة لبوسا :

تجلْبَبَ في الديار برود عُربٍ   وللأعجامِ ما ضَمّتْ حشاها
إذا اشتكت الديار فذاك ذئبٌ   وما أسدٌ يدنس من ثراها[13]

فأين الوطن إذن ؟ والى أين يتجه العربي الذي ضاق به بلده ؟ لقد عانى ـ رحمه الله ـ ما عانى في سبيل الإقامة ، وقصيدة « أين الوطن العربي »[14] صرخة من الأعماق ، ومثلها قصيدة « فهل لشيعة قومي »[15] .

---

(١١) نفسه ص٢٥٢ .
(١٢) نفسه ص١٥٩ .
(١٣) نفسه ص١٤٩ .
(١٤) من ملحمة الرحيل ص١٧٥ ، ٣١٣ .
(١٥) نفسه ص٢١٢ .

وعقد مؤتمر القمة في عمّان سنة ١٩٨٧ وآمل أن يخرج بقرار ملزم يداوي جراح العرب ، ويجمعهم على الخير والهدى بعد أن تمزق الوطن العربي وسُلبت فلسطين ، واحتدمت الخلافات ، واستعرت الحروب :

يا جَمعَ عمان أما نَفحةٌ ... تَهُبُّ في حَدْبٍ أما نسمه
عوجوا على أهْلٍ لنا شرّدوا ... كلٌّ يقضي العمر في خيمه
تذكروا أنا ركبنا الهوى ... وقد خلقنا فيهم النقمه
خمسون عاما وهم في الأسى ... يكافحون الظلم والعتمه
وسرحوا طرفا الى قومنا ... الى عراق السِّلْمِ والهمه(١٦)

(٢)

كان تمسكه بأمته وقومه اعتزازا بلغة القرآن الكريم التي أشْرِب حبّها فتخصص في دراستها وخدمها خدمة جلّى بما ألّف من كتب ، ونشر من بحوث ومخطوطات ، وألقى من المحاضرات ، أظهرت قيمتها وأهميتها في وَحْدة العرب :

تعاليتِ يا زينَ اللغى عبقريةً ... فجاء بها يُتلى الكتابُ ويُكتبُ
ألم ترَ أني منذ خمسين حجةً ... أقلّبُ من أعلاقها ما أقلبُ
وسيرّت في نفسي هواها الى التي ... شغلت بها وهي الغرام وملعب(١٧)

لقد تعلّق بها ، وقال في تحية مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

لغة سعيتُ لما شقيتُ له ... منها كأني رُحْتُ أستبقُ
وشُغلت منها شُغْلَ ذي أرب ... أضْناه في غمراته علقُ

---

(١٦) حنين الى الكلم الضائع ص٢٦٢ .
(١٧) نفسه ص٢٤٥ .

أنا بعضُ جَمْعٍ ليس يجمعهم إلا التي ببيانها نطقوا
وأمضُّهم هَمٌّ لما بغد تلقى فلا تشقى وتختنقُ
مما حوت من فيضها مَدَدا تقوى به وتروح ترتفقُ
وضمانةٌ الضاد المنير وما للذكر من نفحاته نَسَقُ
وذخيرة كنا بحرمتها بأجلّ ما نمنى ونفترقُ
وبما تحدّر من سماحتها حكم تضيء لنا وتتسقُ
وبما هُدينا من رَحابتها طَبْعٌ مشى في سمحه خُلُقُ
وسَعَتْ الى أمم أضرَّ بها خلق وعمَّ سبيلها غسقُ
ودنت الى رشدٍ تلوحُ به فيما تلي من خطبها حُرَقُ (١٨)

وبلغ من اعتزازه بها أنْ أقسم بها(١٩) ، وفخر لأنه أُوتي العربية فاتنة اللغات :

إني وقد أُوتيت فاتنة اللغى وغنيت وانسابت اليَّ جداولُ
لأُجيلُ طرفي في رحيبٍ عامرٍ منها فرَفَّ بما أتته أصائلُ(٢٠)

وتولّهَ بها بعد أن أعرض عن زينة الحياة الدنيا :

ولست بمحرزٍ ما هام فيه القومُ من نَشَبِ
سوى وَلَهي ببنت الضادِ قد أوعبتها خطبي
وعرق زانني شرفا وُصِلْتُ به بخير نبي (٢١)

---

(١٨) حنين الى الكلم الضائع ص٤٦٦ وما بعدها .
(١٩) نفسه ص٤٠٧ ، ٤٨٣ .
(٢٠) نفسه ص٧٠٤ .
(٢١) نفسه ص٧١٨ .

وظل يلهج بالعربية حتى آخر أيامه ، ففي الثاني من شباط سنة ٢٠٠١م نظم قصيدة « ولي كلم » عبر فيها عن هواه ، وحبه للغة القرآن الكريم :

ولي كَلِمٌ ويشرق بي سناها ... ويسحرني فأقبس من هداها
تعالى اللهُ جادَ بكلِ خيرٍ ... بآيات تسامى ما احتواها
جنيتُ بها أصولاً من علومٍ ... فطبتُ وطابَ من خير جناها
ولي لغةٌ حمِلْتُ هوى اليها ... كأنَّ به نسيبا من هواها
فلي مما علقت قديمُ عهدٍ ... أصبتُ بدرّهِ عزا وجاها
علقتُ هوًى وليس هوى سواها ... عراني في نشيدٍ ما عراها
كأني فيه في نَهَرٍ جرىٌ ... مشيتُ به الى سحر جلاها
ووافدة اليّ بأيٍّ لفظٍ ... غنمت به المروّق من شذاها
وقافية شغفت بما استبدت ... به من كل ذي نَفَحٍ نداها
جعلْتُ بديعَ هوى وهل لي ... سواه وهل يوافيني سواها(٢٢)

(٣)

كانت لفلسطين مكانة في قلبه ــ رحمه الله ــ منذ أن حلّت النكبة عام ١٩٤٨م ورأى ما آل اليه الوضع في الارض المحتلة،وما جرى فيها من أحداث دامية ومقاومة نادرة ، وعبّر عن النكبة والمقاومة في شعره ، ومن ذلك قصيدة « يا سيد الدرب الأغر »(٢٣) بمناسبة انتفاضة الشعب الفلسطيني سنة ١٩٨٧م وأهداها الى المجاهد المناضل صاحب الدرب في الارض المحتلة ، وأشاد بأطفال الحجارة الذين انضموا الى آبائهم يقاومون العدو ويرشقونه بالحجارة غير خائفين من رصاص الموت :

---

(٢٢)من ملحمة الرحيل ص٣٦٢ .
(٢٣) حنين الى الكلم الضائع ص٢٧٩ .

كرمت حجارتك التي انطلقت هَوْلا كأنَّ رشيقها أسَلُ
هي دَفْقة" توحي بنازلةٍ يسطو بها بأس" وينهملُ
أفدي انتفاضةَ أمة ثأرت أم ثورة يقتادها أصلُ
يا سيدَ الدرب الأغر لقد علمت كيف الحزمُ يحتملُ
يا سيدَ الدرب الأغر وبي وَجْدُ الذي يهتاجه طللُ
إني ليرضيني ذوو غضبٍ للبأس إن حلوا وإنْ رحلوا
فلك السنا والمجدُ والحالُ وبك الهدى طمحت لك المقلُ

وفي قصيدته « طال بنا الشوق »[٢٤] نقل ما يقوله سكان الضفة الغربية ، وما يحكونه من وضعٍ مأساوي حيث يسود الظلام ، وتستر الغيومُ السماءَ فلا بصيص من ضياء ، وقد ضيم الحمى ، وعشت فيه الطغمة المحتلة ، وتعالى نداء الفلسطينيين لإخوانهم العرب ليهبوا معهم ، ويخلصوا الارض المقدسة من رجس الغزاة ، إذ انتفض الشعب ، وعلا صوت أطفال الحجارة ، وهو ساعٍ الى التحرير بإذن الله تعالى :

يقول في الضفة أهل" لنا إنَّ لنا في سَعْينا عزمه
إنا تحملنا ابتغاءَ المنى أقدارنا وهي لنا قسمه
قد سبقتنا في الذرى صيحة" وصدقتنا في الورى كِلْمة

وعُقد مؤتمر السلام لحل القضية الفلسطينية وكان سلاما للمغتصبين لا لأهل الأرض الشرعيين ، وسَمَّى ذلك « مأدبة اللئام »[٢٥] :

أفبعد هذي الفاجعات يجيءُ مؤتمرُ السلام
ويُراد جَمْعُ الخيرين ينال من كرم الطغامِ

---

(٢٤) نفسه ص٣٩٦ .
(٢٥) نفسه ص٥٧٨ .

أفبعد أن نطق الكتابُ بأننا خيرُ الأنام
نَسْعى لرهط الأرذلينَ الى الخبيث من الخصامِ

لقد ظلت فلسطين في قلبه وقلب كل عربي ومسلم مؤمن بأمته ورسالتها السماوية جرحا داميا لن يوقف نزيفه إلا استرجاع الارض المغتصبة وعودة الفلسطينيين الى ديارهم ليعيشوا في حرية وسلام بعد أن تشردوا في المنافي عدة عقود من الزمان .

وتجلت مصر في شعره وهي القطر العربي الذي حَفِظَ التراث العربي والاسلامي ، وكان لها أكبر الأثر في النهضة العربية الحديثة ، وقد أحبها ـ رحمه الله ـ حبا جما ، وكان يحن اليها ، وقصيدته « تحية الى مجمع اللغة العربية »[26] تعبر عن ذلك الحب والحنين :

غلب الحنينُ اليك يا مِصْرُ ... فالعلم زادي منك والذِكْرُ
أسليلةَ الأمجادِ معذرةً ... أنْ قد تخلّفَ عني الشعرُ
وورِيشة للفن في صُوَرٍ ... أغفى على جنباتها السِّحْرُ
صنوانِ شبا توأمين معا ... وقد استطالا أنتِ والدهْرُ

وشكا الى مصر الواقع العربي وما آلت اليه الحال[27] ، وهي الجديرة بأن ترسم الطريق للعرب لما لها من إرث حضاري ، وإيماز بالعروبة والاسلام .

وقف عند دمشق وحيَّا ماضيها الزاهر[28] ، وحيا أحياءه في سوح الجهاد بطرابلس[29] ، وعتب على تونس الخضراء[30] التي كان أستاذا

(٢٦) حنين الى الكلم الضائع ص٧١ وما بعدها .
(٢٧) نفسه ص٢٩١ .
(٢٨) نفسه ص٧٥٧ .
(٢٩) نفسه ص٨٠ .
(٣٠) نفسه ص٥٧٤ .

زائرا في جامعتها سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٦٢ . والتقى في مكتبة مجمع اللغة العربية الاردني سنة ١٩٩٩ عربيا من الصومال ، وتحدثا عما أصاب هذا البلد العربي ، وما أصاب أهله جراء الحرب التي استعر أوارها منذ سنوات ، ونظم قصيدة « من صدى كلمات افريقية »(٣١) مصورا غربة ذلك الصومالي، وكأنه يتحدث عن غربته :

مَنْ مُبْلِغ الصومال أنغامي ... ما رَفَّ منها في الثرى الظامي

إني لموجوعٌ وذو غُرْبةٍ ... أعدُّها ذنبي وآثامي

نأيتُ عن أرضي وقد غالها ... ذو شِرَّة يخبط في الهامِ

ألي الى الصومال رُجْعى وهل ... أشيم ما آمل قُدّامي

وهل اناجي في الثرى الحامي ... عالمَ أفريقيّة الدامي

أأبتغي هجاءَ أيامي ... ولم ينل هجويَ اقوامي

ظلمت أياميَ إنْ عِبتها ... وظالمي صاحبُ إيامي

سوادُ عصري لفّ أيامي ... وليل عمري طفّ أعوامي

ولم ينسَ إخوانه المسلمين في البوسنة والهرسك :

إني من الإسلام أنتهجُ السبيلَ الى السلامِ

وشعائري جَمْعٌ ولا قَصْرٌ تقود الى الوئامِ

هي في ربوع كنّ لي من بعض زَمْزَمَ والمقامِ

أسعى الى الأرض الطهور عثا بها ظالمُ الأنامِ

هي كلُّ أرضٍ لم يكن للحقّ فيها من ذِمامِ

وجعلتها حجا على بُعْدٍ من البلد الحرامِ

---

(٣١) من ملحمة الرحيل ص٢٥٨ .

وفي القصيدة تصوير لما أصاب المسلمين من قتل وتشريد :

وهتفت أين الحقُ للانسـانِ في الغيـَرِ الجسـامِ
يُعْدَى على الطفل الغريـر يُقادُ للمـوت الزؤامِ
ويكال للشيخ الكبير يُذاق مـن غصَص الحِمـامِ
كيف السكوتُ على اغتصـابِ كرائمٍ لبني الكرامِ
أحقوقُ هذا الغـرب أن يُمنى العظيم مـن العظـامِ
ألأنّـه مـن مسـلمينَ ، وأنه شَـرُّ الطّغـامِ
ولأنّ ظالمـه نسـيبُ الغـرب في جيش لُهـامِ
أفيرتضي الصرْبُ الطّغام بما استباحوا من حـرامِ(٣٢)

لقد كان الهم العـربي والاسـلامي من همومه ، وقد عبَّر عن آمالـه وآلامه ، وبثّ شكواه مما أصاب العرب والمسـلمين من تفرق . ونكبـات امتدت عقودا من الزمان ، ولا يزال سعيرها ملتهبا .

(٤)

كان له موقف من العصر ، وفي شعره ما رآه ، وما كان يتصوره في رحلة حياته الطويلة . وقـد وقف في قصيدته « مع العصـر »(٣٣) موقفا سـلبيا مـن العصـر :

ومن الغرائب أنْ تُشيد بعصرنا ... ويَشـينه فينـا غباءُ جهوله
عَصْرٌ صرفنا الخير فيه بسَوْأة ... ولربَّ صَرْحٍ قد خوى بنزيله

---

(٣٢) حنين الى الكلم الضـائع ص٦٨٧ .
(٣٣) نفســه ص٢٤٩ .

عَصرٌ" أطلّ ببارعٍ من فتنةٍ ولَدِمنةٍ" خضراء مَحْض خميله
أبغضت من عصري بريق زخارف وغيابُها برحياننا ورحيلهِ
ونكلتُ عنه وقد تباغض أهلهُ فعدلتُ عن شر لبعض مثيلهِ

ووصف العالم في قصيدته « أنا والعصر »[٣٤] بالكذب ، وما في حضارته من زيف وخداع ، ووقف الموقف نفسه في قصيدة « أغد تخشاه وكيف غد »[٣٥] ، وانكر أن تكون الأمة العربية بخير في هذا الزمن الذي هو زخرف وباطل :

قد طال العَصْرُ بزخرفهِ فأقيم لنا منه نُصُبُ
وجعلنا حُلْيِ بضاعتنا عَبَثا نبلوه فنحترب

ومن سوء العصر تحكم الأراذل بالناس ، وأدى ذلك الى أن يُصيب خيارَ الناس الخسف[٣٦] وليس وراء العصر غير ظلمات الغاب ، وأن الدنيا أصبحت مباءة مغريات :

هي الدنيا مباءة مُغْرِياتٍ وحَسبُ مناك مشرقة السرابِ
تحلبها وأسْلَس دَرَّتيها هَوٍ بالنعْميات من الرغابِ
تحلبها وتاه بترهاتٍ تؤول الى طعامٍ أو شرابِ
خَبرتُ حضارة العصر المرجى فشمت وراءه ظلمات غابِ
وماذا يُدَرّى ببديعِ فكرٍ اضاء سناه مدرجة الخرابِ[٣٧]

---

(٣٤) نفسه ص٤٢٩ .
(٣٥) نفسه ص٤٩٠ .
(٣٦) ينظر حنين الى الكلم الضائع ص٦٠٥ ، ٦٢٢ .
(٣٧) من ملحمة الرحيل ص٣٢-٣٢ .

ودعا على العصر فقال :

فلا رعى اللهُ لي عَصْرا بُليتُ به ... ما ضمني من هجير لا أُهاجره
غمزتُ لحني ارجو بَعْضَ نائله ... فعاد لي ببعض مايشجيك ساخرُه(٣٨)

ودعا نوحا ــ عليه السلام ــ لينقذه من هذا العصر بسفينته التي حملت من كل زوجين اثنين :

فأنا أبنُ هذا العصر أرقبُ فُلْكه ... لكوارثٍ يوما من الأيامِ
وكأنني أرنو اليه حقيقةً ... وأرى القيامة والجحيم الحامي
يا سيدي نوحا أآمل أن أرى ... فُلْكا تسيّرُه الى الاقوام
أنا المقيمُ على ضلالة أمةٍ ... أم حاضري حُلْمٌ من الاحلامِ(٣٩)

لانه فقد الامل في نجاة العالم من ظلمات لعصر :

أخا العصرِ إنّ العصرَ في ظلماتِه ... فكيف أرى في عاجلٍ نورَ آجلِ
وكيف أرى في آخر الليل قادما ... ليبدأ قرْنا ثالثا بالرذائلِ

وتحدث عن العوْلمة والخصْخصة :

وقالوا لنا في الأمر عوْلمُ أمةٍ ... الى أممٍ بتّت حبالَ القبائلِ
أقِلْنيَ عذْرا إن جهلت جديدنا ... بعولمةٍ حيزت لشتى المقاتلِ
أليس يحق إن تشاءمَ ذو حجى ... وهل أنا من ذي حكمة متفائلِ
أفدتُكَ أني لستُ أدرك عولما ... وعوْلمةٌ يقسو بها قول قائلِ
وكيف أراني عند خصْخصة شدا ... بها كلُّ مفتونٍ بغرْبٍ مطاولِ

---

(٣٨) نفسه ص١٨٢ .
(٣٩) نفسه ص٣٤٣ .

لكَ اللّـه من عَصْرٍ تسلّح أهله   بكل خبيثٍ للمكارم قاتلِ
فلم تَبْقَ فينا مِنّةٌ نحتمي بها   لنرأب مما أحدثوا بالمعاولِ (٤٠)

وعاد الى العولمة التي لا يُدرى أين يكون موقعها ، وهل ستكون أمل الشعوب أو ستكون ليلا مظلما ؟

قد نابنا الدهرُ الغني وقد مشى منه هَوِيّ
أفنافِعٌ أنّا نعيشُ وحَسْبُنا شِبَعٌ وريّ
ألنا بعولمةٍ رجاءٌ ، أم لنا ليلٌ دَجِيّ
ومتى وأين يشع في آفاقنا أمَلٌ بَهِيّ
إنّا بجعجعةٍ ولا طِحْنٍ وطاش بنا دَوِيّ (٤١)

وصوّر شغف الناس بجديد العصر غير آبهين بما سيؤول اليه هذا الجديد .

(٥)

ليس في شعره مديح ، لأنه أبى أن ينزلق الشاعر الى هذه الوهدة :

قد كان ذا وأسايَ يبهظني   مما جناه الشعرُ والنثرُ
كم ضيمَ من وَزْنٍ وقافيةٍ   يشقى بها كسّابة تَجِرُ
أنكرتُ للشعراء مَدحهمُ   للارذلينَ وما اصطفوا هُجُر
كلٌّ لقد شاخت محاسِنهُ   وَدَجَتْ به أحلامه الكُثُرُ
ويلمّ مَنْ يَزْهَى بأرديةٍ   مُسِخَتْ له فاهتاجهُ كِبْرُ

(٤٠) من ملحمة الرحيل ص١٤٤ .
(٤١) نفسه ص٣٥٤–٣٥٥ .

ولمن يشممر في ضراوتِهِ ينزو به من وعثها كَفرُ
فرمى به مسخا ويحسبه ليثا وقد يستأسد الهرّ[42]

وهو — رحمه الله — على الرغم من انعزاله وانصرافه الى البحث والتأليف كانت له علاقات فكرية مع بعض الذين قدروه حق قدره ، وله فيهم إخوانيات على غرار ما كان معروفا في الشعر العربي القديم • ومن الذين وجّه قصائده اليهم : روكس بن زائدة العزيزي ، قال فيه بعد أن بثّه شكواه :

يا واحدَ الرفقاء قد فُقْتَ الصفيَّ من الصحابِ
عوّضتني مما فقدتُ وما استحال على طِلابي
ومنحتني في وحدتي إلفا أعانَ على اغترابي
عفوا فقد خفّ الأبيّ الألمعيّ الى خطابي
وهو العزيزيّ الذي ينمى لآباءٍ غِضابِ
غمر تلذّ له المروءة ماجدٌ رحبُ الجنابِ[43]

والدكتور عبدالكريم خليفة :

أهديكها عبدَالكريم يَزينها كرَمي وخيري
تمشي اليك الى الفضائلِ حازها عفّ الضميرِ
هو أنت والخلُقُ الرضيّ سما الى العلم الغزيرِ
صنوانِ قد جمعا فطابا في النظير مع النظيرِ[44]

---

(٤٢) حنين الى الكلم الضائع ص٧٥٨ •
(٤٣) حنين الى الكلم الضائع ص٣٣٠ •
(٤٤) نفسه ص٣٣١ •

وبثه شكواه من نأيه عن وطنه ، وما يرزح فيه من آلام الغربة والشتات.
وأهدى اليه قصيدة أخرى نظمها بعد أن وجد بعض أصحاب المعاصرة والحداثة ينبزون المجامع اللغوية ويعدونها مهاجع احتفالا . ويزعمون أنّ أصحاب المجامع ليسوا من أبناء العصر وهم سادِرون في شيءٍ بعيد عنه،وهم هاجعون في خلواتهم :

أذُمُّ لأهل العَصْرِ نبزَ المجامعِ ... وما كان منهم في النجوم اللوامعِ
قد ستهدفوا في نبزِهم أيَّ ساطعٍ ... وقد قصدوا في خوضهم أيَّ لامعِ
لحى اللهُ عصرا سادَ فينا غثاؤه ... فلم يبق فينا بعض شيءٍ لنافعِ(٤٥)

وأستاذه اكرم زعيتر :

إني عرفتك والشبابُ غضارةٌ ... وعرفتك الليثَ الذي لا يُقْهرُ
وأخذتُ عنك العلم يشرق نورُه ... ولديَّ مما بعضه أستظهرُ
ولقد شهدتكَ والخطوبُ مُرِبَّةٌ ... ومشى بها سعيا اليك المنبر(٤٦)

ووجه قصائد الى أستاذه الدكتور عبدالعزيز الدوري ، والدكتور محمود ابراهيم ، والشيخ حمد الجاسر ، والدكتور عبدالعزيز المقالح ، ومحمد مهدي الجواهري ، وعبدالله السريحي ، والشيخ عبدالله بن محمد بن خميس ، وصبحي البصام ، وسمير غريب ، والدكتور جورج متري عبدالمسيح وهذه القصائد ليست مديحا وإنما هي من الإخوانيات ، وفيها بث - رحمه الله - شكواه اليهم وما كان يُعاني في الغربة من وحشة وتفرق الاصحاب .

---

(٤٥) من ملحمة الرحيل ص٩٧ .
(٤٦) حنين الى الكلم الضائع ص٣٣٥-٣٣٦ .

(٦)

في ديوانيه المطبوعين بعض الرثاء الذي يُعَبِّرُ عن نفسه وما لقيه أكثر مما يعبر عن المرثي ، قال : « بعد أن ذهبت أيام الصبا أحسستُ أنَّ واجبَ الرثاء يدعوني الى ما أنا فيه في هذه السطور ، وبكاء الماضي شيء يفرضه عليَّ هذا الحاضر الأليم . لقد رأيت أني غدوتُ آلم من وحدة ذهب معها الرفيق والصديق ورحت أتلو قول أبي عبادة :

وأرى لِداةَ أبي تتابع كثرهم عني فكرَّ الدهر نحو لِداتي

... ولكن كيف السبيل وقد قُطِعَ الدرب ، وسُدَّت المسالك ، وهلك الأهل والصديق ، وأوذيت رَحِمٌ ، ورثَّ زمانٌ ، فأين الديار ، وكيف المصير »[٤٧] .

هذه نفثة تعبر عن حاله ، وما آل اليه بعد فَقْدِ الاهل والاحبة ، وبعد الغربة الطويلة التي طوَّفَ فيها ببعض البلاد ، ولم يسعد برؤية وطنه وذويه وداره التي ودعها بحزن عميق سنة ١٩٨٢ .

وقعت الحرب في الثمانينيات وسقط الشهداء فداء للوطن ، وهزَّه ما هزَّ الآخرين ، وناجى وطنه :

مَنْ مُبْلغ الوطنَ الحزينَ ندائي وأنين قافيتي وحَرَّ شقائي
وبلوتُ حشرجةَ الهموم بخاطري إن كنت لم أُهدِ الشهيدَ رثائي[٤٨]

(٤٧) حديث السنين ص٢٥ .
(٤٨) حنين الى الكلم الضائع ص٥١ .

ونظم سنة ١٩٨٤ قصيدة « رثاء الشهيد »(٤٩) عندما بلغه استشهاد الولد الوحيد لأحد أصحابه ، قال : « بلغني أنّ أحدا من أصحابي قد استشهد ابنه الوحيد في معركة النضال والشرف فحزنت لهذا المصاب الجلل أشدّ الحزن ، ورحتُ أتحدث مع نفسي في أمر صاحبي ، ثم تعزيت في أنّ ما جرى لصاحبي هذا جرى لجمهرة من إخواننا الذين قدّموا أبناءهم، فذهبوا مع غيرهم وقود هذه الحرب التي ابتليت بها الامة الصابرة . وقد كان لي في هذا أبيات جعلتها رثاءً للشهيد لا أخصّ بها نجل صاحبي وحده بل الشهداء عامة الذين هم أبنائي وآباوهم إخوتي وأحبائي » :

آذنتني والليلُ دربٌ بعيدُ   غررٌ سَمْحةٌ وفجرٌ وليدُ
بجلالٍ من الشهادةِ يُضْفيـ   ـه الى مجده شباب نجيدُ
رفّ بالنور والنجيع فما يفتأ   مجدٌ يتلوه مَجْدٌ جديدُ
يتهادى سَمْحا وأيُّ سماحٍ   أنْ يُضحي به الأبيُّ الشهيدُ
يتحدى مستوحش الموت يهديه   يقينٌ هادٍ ونصرٌ أكيدُ(٥٠)

ورثى زميله الدكتور صلاح خالص بقصيدتين(٥٠) ، وكان قد رثى الإمام الحسين بن علي ـ عليه السلام ـ وقال :

غنيت بذكرك أتلو الهدى   ومِلْتُ لقبرك أبكي الندى
وهل لي رثاءٌ وكيف الوصولُ   الى مرتقى عزٍّ أنْ يُرتقى
ألي من بياني بعضُ الوفا   كأني بهذا أرومُ الصفا
سلامٌ عليك اذا الخالدون   اصطفوا كنتَ فيهم شهيدَ الإبا(٥١)

---

(٤٩) نفسه ص٦٦ .
(٥٠) نفسه ص٣٠٦ ، ومن ملحمة الرحيل ص٣٤٧ .
(٥١) من ملحمة الرحيل ص٢٨٣ .

ورثى محمود محمد شاكر بأبيات :

أأبكي الندى والعلم من بعد محمودِ ... لقد كان لي في خَطْبه أيُّ مفقودِ
أأبكي التي فيه وقد عزّ مثلها ... حماسة ذي صِدْق الى خير موعودِ
أجل أنا أبكيه وأبكي بقيةً ... عشيرةَ مثلي سائرين لمرصودِ
توفيت الآمالُ بعد أُولي النهى ... فيا دمعتي سُحي ويا عبرتي جُودي
وكيف أُراني والردى غال في العلى ... وجول في الشم الصياصي من الصيد(٥٢)

وكان قد رثى أبويه بقصيدة خلفها بين أوراقه في بغداد ، وتذكر منها أبياتا فأكملها وقال :

ودّعت أوّل خطبٍ باتَ يصعقني ... أُمّا ولي في ذَراها خير مؤتمنِ
مضت ويا حرّ ما عانيت شِقوتها ... نهبا لسُلٍّ وما قاسَتْه من وَهنِ
قد شيعت لبعيد لستُ أُدركه ... فلو حظيت بقبر كان من سكني
وقلت هل كفّ عني بطشُ فاجعةٍ ... وهل خلوتُ لدى حكم ومضطغن
وهل سلانيَ ذو حقد يُساورني ... وهل خلوتُ لدى حكم ومضطغنِ
حتى دهانيَ من دهياءَ قاصِمُها ... ونابني القدرُ الطاغي على الزمنِ
كأنّ شخص الردى طاغٍ وما فتئت ... يقوده لأبي غِلٌّ وذو إحَنِ
رأيتهُ حين وافته منيته ... أبى فراق التي نادته في الشجنِ
ألي اليه وفاءُ البائسِ الحزِنِ ... وقلّ مني الوفا في دمعيَ الهتِنِ
ولي بغير الذي أُبدي الوفاءَ له ... مما يُساورني من باهِظِ الثمنِ
مضى وسيرَ به عني وبتُ كمن ... قد هاج فيه أسى في السر والعلنِ
ورُحْتُ بعد رحيل الأهْلِ كلهم ... لم ألق غير الاسى والهم والحزن(٥٣)

---

(٥٢) نفسه ص٣٠٢

(٥٣) نفسه ص٣٥٦ .

(٧)

نزّه ــ رحمه الله ــ شعره من الهجاء ، ومعظم ما وجّهه من قصائد الى الآخرين يدخل في باب العتاب . ولم يشأ أن يذكر أسماءهم ، أو يذكر ما يُشير اليهم ، وكان عتابه الوحيد الذي كشف عن المقصود في قصيدته « الى من محضت له صداقتي »(٥٤) هو أستاذي الدكتور مهدي المخزومي ــ رحمه الله ــ وكانا قد اشتركا في تحقيق (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي ، ولما صدر الجزء الثامن منه سنة ١٩٨٥ وجد أن الدكتور المخزومي كتب اعتذارا قال فيه : « إن زميلي في التحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي اضطر أن ينتدب للتدريس في الجامعة الاردنية ، وكان لزاما عليه أن يُنجز حصته في أربعة الاجزاء الاخيرة في غضون عطلة الصيف ، وكانت حصته فيها الانصاف الاولى منها . والتحق بالجامعة تاركا عليّ تصحيح هذه الاجزاء ، وحين أقبلتُ على تصحيحها فوجئتُ بنتيجة السرعة في التحقيق فتحملت تبعة هذه السرعة ، وأخذت أتابع تحقيقه سطرا سطرا بل كلمة كلمة، واستطعت بعد جهد جهيد أن أنقذ هذه الاجزاء الاربعة من هفوات لا تغتفر جرى بها قلم الزميل من هنات تحمل على أنها من الخطأ في الطباعة » .

وتأثر بما كتبه زميله وسأل : « لِمَ انحرف هذا عني وقد اتخذته صاحبي وصديقي ما يقرب من ربع قرن ، وحفظت غيبه يوم ذهب الى السعودية مع الآخرين بعد فصلهم في العراق في أول عهد ثورة عبدالسلام محمد عارف »(٥٥) . وعزا هذا الى البحث الذي نشره في مجلة مجمع اللغة

---

(٥٤) من ملحمة الرحيل ص٣٦ ، وكان ــ رحمه الله ــ قد ارسلها الي بخط يده في اواخر عام ١٩٨٧ حينما كان في صنعاء .

(٥٥) فوات ما فات من حديث السنين ص٤٨ .

العربية الاردني وفيه أنكر أن يكون للنحو مناهج بل مدارس ، وحسبه منكرا عليه رسالته « مدرسة الكوفة » ومبطلا ما ذهب اليه . وما كان من الدكتور المخزومي الا أن يكتب الى المجمع الاردني صفحات أربعا فيها ما لا يحسن به أن يكتبه(٥٦) ، ولم تنشر ، واطلع عليها ـ رحمه الله ـ وتكلم على الموضوع باسهاب في كتابه « المدارس النحوية أسطورة وواقع » ونظم قصيدة الى الدكتور المخزومي :

خوصِرتُ في كلمي فكيف أُترجم	وخبرت منها ما أكاد أُجمجمُ
عالجتهن فما ابتغيتُ وسيلةً	إلا شقيت بها فرحتُ أُتمتمُ

وأشار الى مشاركته في تحقيق (العين) ، وما لقي منه الخليل حينما كتب رسالته عنه(٥٧) ، وذكر صحبته التي رضي بها غير برم ، وختم القصيدة بعد أن هدأت ثورته بقوله :

ولبئس ما يشقى أخو رشد بما	يلقاه من بعض الخصيم فيندمُ
أقسمت بالآلاء يسطع ضوؤها	يغنى بها الخِلُّ الوفيُّ ويغنمُ
وبطيبات كنَّ من عددي وبي	ما عادني من فيضهن فأنعمُ
وبأكرمين حفظت سابقَ عهدهم	ولديَّ من بركاتهم ما يُلْهِمُ
إني لأذكرُ إخوتي ويعودني	في بعض تذكاري هوى أو بلسمُ

(٨)

له قصائد نظمها في باريس ، ويبدو من ظاهرها أنها غزل وحنين الى حبيبة تركها في العراق عند رحيله سنة ١٩٤٨م لإكمال دراسته في السوربون . ولكن من هي ؟ لم أسمعه يتحدث عن حبيبة ملكت قلبه قبل سفره ، ولعله

---

(٥٦) ينظر نفسه ص٤٨ .

(٥٧) ينظر نفسه ص٤٦ وما بعدها .

آثر أن يطوي هذه الصفحة من شبابه ، ولا ينشر إلا القليل من القصائد التي نظمها في باريس ، وهي تنم على حب قديم ظل يتذكره بعد خمس سنوات وقد دبّ الأسى في قلبه :

إني وقد دبّ الأسى في نغمتي ... واستمرأ الوكفَ الشجيَّ غناءُ
لتهزني بالأمس دنيا متعةٍ ... شوقا وتغمرني بها سرّاء(٥٨)

وأية متعة للشاب غير الحب الذي يحلق به في دنيا الخيال ، فينسيه همومه وأحزانه . لقد بعدت المسافة وانطوت سنوات :

أنا للهوى قلب تنزّى يستريحُ الى لقاها
أسعى بها ويهزّني همْسُ الحنينِ الى رِضاها
ماذا عساها أنْ تكون على النوى ماذا عساها
إنْ صوّحَتْ دنيا البِعادِ وباتَ منقطعا مداها(٥٩)

وظل سؤاله يتردد بحيرة :

أبادٍ لعينيك ظل الغدِ ... يشعُّ ضحاه بعطرٍ ندي
تخفُّ اليه بنور الرجاء ... عجولا تهمُّ الى المشهدِ

ولم ييأس ، وسيطوي الربوع الى الحبيبة :

سأنسى الزمانَ غداةَ اللقاءِ ... وذلّ الشتاء ووحْشَ الخريف
الى مطلع النور أطوي الربوع ... يُهدهد مني الشباب الرسيف
هناك تلوح كلون الضحى ... لعيني آسية هاديه
أُنبئها أنّ ليل الفراق ... وهولَ البعاد لظى حاميه(٦٠)

---

(٥٨) حنين الى الكلم الضائع ص٦–٧ .
(٥٩) نفسه ص٨–٩ .
(٦٠) نفسه ص١٢–١٣ .

أيستطيع أن يعيدَ عهد الهوى والشباب ، وهل له أن يصيب لقاء وبينهما البحار ؟ لم يكن له إلا أن يعانق الرجاء لعله يلقاها ويبل ما في قلبه من جوى بعد أن عبث الفراق به ، ورماه بعيدا :

أبيتُ اليك أعتنقُ الرجاءا   فهل لي أنْ أُصيبَ غدا لقاءا
وهل لي أنْ أبُلَّ جوًى وقلبا   يخفقُ لديك يلتمسُ الشفاءا
لقد عبثَ الفراق وما تولّى   وغادر مَنْ أحبّ وما أفاءا

ولم ييأس من اللقاء ، فلعل الغد يحقق الأمنية ، وتقر عيناه ، ويسعد بعد شقاء:

أقول غدا وليت غدا مجيرٌ   ومَنْ لي أن يكون لي الدواءا
وهل أجْلي العيون بها صباحا   واطرح الوجود به مساءا
فيا شوقي وفيك عرفتُ دنيا   غنيتُ بها فما أسمى الغناءا

ما أشقاه في غربته ، وقد ترك أيامه الباسمة ، وودع الحبيبة التي من أجلها عانق الرجاء لعله يلقاها :

تركتُ الأمس بسّاما نضيرا   تعطّرَ واختفى وزكا نماءا
عرَفْتُ به الهوى لحنا علّيا   سرى في خافقي قبَسا غناءا
فهلاّ بعض أيام فاني   أبيتُ اليك اعتنق اللقاءا(٦١)

كانت تلك أهم القضايا التي تحدث عنها في شعره ، وهي قليلة اذا ما قورنت بالقضايا التي أرهقته وأعظمها الغربة ، وما نتج عنها من ألم بثه شكوى في قصائده الكثيرة ، بل كان جلّ شعره في الغربة والشكوى والحنين الى الوطن والدار التي ودّعها وظلت تشكو فراقه هي والنخلة والزيتونة اللتان غرسهما في حديقة الدار ، وظل يناجيهما في اليقظة والمنام .

---

(٦١) نفسه ص١٨–١٩ .

الإستلهام

(١)

الإستلهام : هو طلب الإلهام ، ومن معانيه ما يُلقى في القلب من معانٍ وأفكار ، والشاعر وهو ينظم قصيدته ، لابدّ من أن تتسلل اليه معانٍ وأفكار خزنها من ثقافته وقراءاته ، وكان — رحمه الله — ذا ثقافة قديمة وحديثة ، وقد تسربت الى قصائده — ولا سيما الموروث القديم — ألفاظ ومعانٍ وأساليب .

وأوضح ما يبدو في شعره تأثره بالقرآن الكريم الذي عكف على قراءته وحفظه منذ الطفولة ، وواظب على قراءته وتمثل معانيه ، وكانت رسالته للدكتوراه « الجموع في القرآن » فضلا عن كتبه وبحوثه في الدراسات القرآنية . ومن تأثره استعمال عبارة « أضغاث أحلام » التي تكررت في قصائده[1] ، وهي إشارة الى قوله تعالى : « أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (يوسف ٤٤) وقوله : « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو قولُ شاعر » (الأنبياء ٥) .

وقوله :

الكاظمين الغيظَ والساعينَ في الرَّهجِ الرهيبِ

من قوله — تعالى — : « والكاظمينَ الغيظَ ، والعافينَ عن الناس » (آل عمران ١٣٤) .

---

(١) ينظر حنين الى الكلم الضائع ص٦ ، ٢٢ ، ٧٨ ، ٤٩٥ ، من ملحمة الرحيل ص١٣ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٢٤٠ .

وقولـه :

وأراني من رحلتي قابَ قوسٍ خَبَرٌ مُوحِشٌ وركبٌ عجولُ

إشارة الى قوله ــ تعالى ــ : «فكانَ قابَ قوسين أو أدنى» (النجم٩).

وقولـه :

طلعت الى الجوزاء فاحتفلت بها الشِّعرى العَبورُ

إشارة الى قوله ــ تعالى ــ : « وإنه هو ربُّ الشِّعرى » (النجم ٤٩).

وقولـه :

والليلِ والصباحِ والأصائلِ وساهراتِ النجمِ والمناهلِ
والليل إذ يغشى وريان الضحى أجَلُّ ما ينساب في خمائلي

وهو ما ورد في القسم القرآني : « والضحى والليل إذا سجا » (الضحى ١ــ٢) و « والليل إذا يغشى » (الليل ١) .

وقولـه :

يا فالقَ الإصباح حَسْبي ضلّةٌ جَنيبَ ما رُزِئتُ في سنابلي

من قوله ــ تعالى ــ : « خالق الأصباح وجعلَ الليلَ سكنا والشمسَ والقمر حُسبانا » (الأنعام ٩٦) .

وقولـه :

وهو سِفرٌ للمجد في صَدْرٍ غير ذاتِ العماد من إرَمِ

من قوله ــ تعالى ــ : « إرم ذاتِ العماد » (الفجر ٧) .

وكرر « خفض جناح الذل »(٢) ، وفي ذلك إشارة الى قوله ــ تعالى ــ :

---

(٢) ينظر حنين الى الكلم الضائع ص٦٤ ، ١٧٣ ، ٢٤ ، ٦٦ ، ٣١٠ ، من ملحمة الرحيل ص١٠٨ ، ١٤١ .

« واخفِضْ لهما جناحَ الذُّلِ من الرحمة » (الإسراء ٢٤) .

وقـــولـــه :

فاني اليوم أقربُ منك حَبْلا أُجددُ ما استَرمَّ من البناءِ

من قوله ـ تعالى ـ : « ونحن أقربُ اليه من حَبْلِ الوَريد » (ق ١٦).

وقـــولـــه :

وتوشك أنْ تكونَ لها وقودا فتنــزع في غــد منها شَوَاها

من قوله ـ تعالى ـ : « نزّاعة للشَوى » (المعــارج ١٦) .

وقـــولـــه :

أشرٌّ قد أُريــد بنــا ومــاذا تحاول أُمَّــةٌ ثكلت نهاهــا

من قوله ـ تعالى ـ : « وإنا لا نَدريأَشرٌّ أُريد بمن في الأرْضِ أم أراد بهم ربُّهم رَشَــدا » (الجن ١٠) .

وقـــولـــه :

وكنت بثاني اثنين مَعْه بكثرةٍ ولم ألكُ معْه في شتيتٍ قلائل

من قوله ـ تعالى ـ « ثاني اثنين إذْ هما في الغارِ » (التوبة ٤٠) .

وفي قصيدته « لابد من صنعا »[٣] : سدرة المنتهى ، وذو متربة ، وفك رقبة ، وحمر مستنفرة ، وقسْوَرة ، وماهيه ، وجنة عدن عالية ، ومؤصدة ، والمسجد الاقصى ، وواحد أحد ، والصمد ، ومالا لبــد ، والتين والزيتون ، وطور سينين ، وكتابيه ، وحســابيه ، وماليه ، وســلطانيه ، وهي عبــارات ومعــان قرآنيــة .

---

(٣) حنين الى الكم الضــائع ص٢٤٠ .

وقــولـــه :

والعصرِ إني اليوم في خُسْرِ   والليلِ يُفْضي الى الفجرِ

من قوله ـ تعالى ـ « والعصرِ • إنَّ الانسانَ لفي خُسْر »
(العصر ١ـ٢) ، وقوله : « والليل إذا يسري » (الفجر ٤) •

وقــولـــه :

ثمالةٌ بِئْسَتْ شرابا وقد   ساءَ بما يشقى به جازعُ

من قوله ـ تعالى ـ : « بئس الشرابُ وساءَت مُرْتفقا » (الكهف ٢٩) •

وقــولـــه :

إنْ تَريني عانيتُ صفقة خسر   ثم تَبَّتْ يدايَ أيَّ تبابِ

من قوله ـ تعالى ـ : « تَبَّتْ يدا أبي لَهَب » (المسد ١) •

وقــولـــه :

وكان خيرٌ لنا من أمةٍ خرجت   وقد خلفنا فلا عربٌ ولا عجمٌ

ومثلـه قــولـه :

أمتنا كانت خيرا   والخير مضى مَعْ مَنْ ذهبوا

وقــولـــه :

كنتم بما حكمت خيرَ أمَّة ذهبوا

إشارة الى قوله ـ تعالى ـ : « كنتم خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس »
(آل عمران ١١٠) •

وقولـــه :

والـذكـــر يحفظـه ذو مِـــرّةٍ قَـمِنْ

وقولـــه :

لوعيت أيّةَ حكمةٍ قد قالها ذو مِـــرّة يقضي بما هو قائل

إشارة الى قوله ـ تعالـى ـ : « ذومِرّة فاسْـتوى » (النجم ٦) •

وقولـــه :

أُخاطب منك بعض هوًى قديم فلا أقوى وعزّنيَ الخطـابُ

من قوله ـ تعالى ـ : « وعـزّني في الخِطاب » (ص ٢٣) •

وقولـــه :

إنْ تشـمر في أي مغتـرب تَلْقَ ما كُذّبَتْ بهِ رُسُل

من قوله ـ تعالى ـ : « إنْ كذّبوك فقد كُذّب رُسُلٌ من قَبْلِكَ » (آل عمران ١٨٤) •

وقولـــه :

وكأنمـا سـارت بنـا دهياءُ عاصفةٌ سَبوحُ
لا ذات ألواح ولا دُسر بناهـا الحَبْرُ نُوحُ

من قوله تعالى ـ : « وحملناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُر » (القمر ١٣) •

وقولـــه :

تلك من قِسْمَةٍ إذَنْ هي ضِـيزى تحـدني

ومثلـه :

رضيت في قسمة ضيزى ولست بها   أقوى على طِيئةِ الأيـامِ من بدني

من قوله ـ تعالى ـ : « تلك إِذَنْ قِسْمة ضِيزى » (النجم ٢٢) .

وقولـه :

وقالت النخلة هل من عالمٍ   أراه لا يـؤمن بالقنابـل

تلك التي حزّ رؤوس صحبتي   لا الطلعُ منضودٌ ولا عثاكلي

ومثلـه :

ساءلته هل لذات الطلع من خبر   وقد تجهم وجه الحي في الرحبِ

إشارة الى قوله ـ تعالى ـ : « والنخل باسقات لها طَلْعٌ نَضيد » (ق ١٠) .

وقولـه :

وقد وَهَنَ العظم وبي كبرةٌ   أقسو عليها بكريم الإبـاء[٤]

من قوله ـ تعالى ـ : « قال : ربي إني وَهَنَ العظمُ مني واشتعل الرأسُ شيبا » (مريم ٤) .

وقولـه :

وأعلمُ إنّ وَعْدَ اللهِ حَقٌ   وإنا سائرون الى فَنـاءِ

من قوله ـ تعالى ـ : « إنّ وَعدَ اللهِ حَقٌ » (الكهف ٢١) .

وقولـه :

لا أجحدُ النَّعمى وهل   يسعى لذا إلا الكفورُ

---

(٤) تنظر الابيات في حنين الى الكلم الضائع ص٦، ٢٢، ٣٥، ٣٦، ٥٠، ٩٤، ١٤٨، ٣٠، ٣٤، ٣٧، ٣٩، ٤١٧، ٩٤٤، ٥٥٦، ١٠٦، ٧٤٣، ٧٦٢ .

إشارة الى قوله ـ تعالى ـ : « وهل نجازى إلا الكفور » (سبأ ١٧) ٠

وقولـــه :

وما كنتُ أعلـم أنّ السنينَ ستلهبُ نزّاعة للشـوى

من قوله ـ تعالى : « كلا إنها لظى ٠ نزّاعة للشوى » (المعارج ١٥ـ١٦)٠

وقولـــه :

وما أُبرىء نفسي إنني بَشَرٌ خَطّاءُ لا أتحامى الشر والخطلا

من قوله ـ تعالى ـ : « وما أبرىء نفسي إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسـوء إلاّ من رَحِمَ ربي » (يوسف ٥٣)٠

وقولـــه :

طويتُ بها طيّ السجل أشابة من الكتب اللائي تركن لعامل

من قوله ـ تعالى ـ : « يوم نطوي السّماءَ كطيّ السّجلِ للكتبِ » (الانبيـاء ١٠٤) ٠

وقولـــه :

فأين الجنتان بـذي نشـوز لأحسبُ أنّ صـنعا جنتـان

إشارة الى قوله ـ تعالى ـ :«وبدلناهم بجنتيهم جنتين » (سبأ ١٦) ٠

وقولـــه :

كأني كجار الجنب غير مواصل وهل يبتغي بعض الوصال جنيبُ

إشارة الى قوله ـ تعالى ـ : « والجارِ الجُنُبِ والصـاحبِ بالجَنْبِ » (النساء ٣٦) ٠

وقـولــه :

تاهت بفرعٍ وهي تنقض غَزْلَها ومشى لهيبُ

من قوله ــ تعالى ــ : « ولا تكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها » (النحل ٩٢)

وقـولــه :

كالشَّمْسِ عاجلهـا النَّوى حتـى تـوارَتْ بالحِجاب

من قوله ــ تعالى ــ : « حتى توارت بالحِجاب » (ص٣٢) .

وقـولــه :

أفتترك الحيُّ الكئيـبُ الى اللظى ذاتِ الوَقودِ

من قوله ــ تعالى : « والنار ذات الوَقود » (البروج ٥) .

وقـولــه :

فهـل ترى قـد بقيـت مـن باقيـــه
وهـل تفـي منهـا عروش خاويـــه

من قوله ــ تعالى ــ : « فترى القومَ فيها صرعى كأنّهم أعجازُ نَخْلٍ خاوية . فهل ترى لهم من باقية » (الحاقة ٧ــ٨) .

وقـولــه :

وقد ضَلَّ عني يوم أول صفقةٍ فيا خُسر مكتالين في الكيل قد طفوا(٥)

إشارة الى قوله ــ تعـالى ــ « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على

---

(٥) تنظر الابيات في ملحمة الرحيـل ص١٣، ٤٠، ٥٨، ٨١، ١٠٥، ١٤٦، ٢٣٦، ٢٤٧، ٢٦٤، ٢٩٨، ٣١٠، ٣١٨، ٣٢٧ .

الناس يَستَوفون . وإذا كالوهم أو وَزَنوهم يُخسرون » (سورة المطففين ١ـ٣) . وفي قصيدة « مع الأمم المتحدة »[٦] : خشب مسندة ، ومؤصدة ، وعمدا ممددة ، وهي عبارات قرآنية : « إنّها عليهم مُؤْصَدَة . في عَمَدٍ مُمدّدة » (الهمزة ٨ـ٩) .

(٢)

في شعره بعض الإشارات الى الأحاديث النبوية الشريفة ، من ذلك قوله :

إنّ الّتي خطبتك برقتها   خضراء قد ورفت بها دِمَنُ

وقوله :

رَبحت دنيا ساءَ ما ربحتها   فدمنةٌ خضراء من مباذلي

من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إياكم وخضراءَ الدِّمَنِ » ، وهي الحسناء في منبت السوء .

وقوله :

قلّوا اذا ما الجد أفزعهم   وهمُ اذا النعمى بَدَت كثُروا

من قوله ـ عليه السلام ـ : « إنكم لتكثرون عند الطمع ، وتقلون عند الفزع » .

وقوله :

طوبى لكل غريب صان غُربتَه   بما يُصان به عِرْقٌ من الذّهَبِ

(٦) من ملحمة الرحيل ص٣٣١ .

وقـولـــه :

دعا طوبى لكـل غريب قوم ٍ ‏ وهل من سامع قول الثقـات

من قوله ــ عليه السلام ــ « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغربـاء » .

وقوله على لســان النخـلة :

أنا عمة المستضعفين كما روى الأثر الأمين(٧)

إشارة الى ما روي عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « عماتكم النخيل ».

(٣)

تسرّبَ الى شعره بعض الموروث النثري ، وقد أعجب بعبارة « بُنيـات الطريق » وكرر استعمالها ومن ذلك قوله :

عرفت فيها بنيات الطريق وقد ‏ شجاك موحِشُ دربٍ غير مأمونِ

وقـولـــه :

وشغلت عن جلل بأُخْرات عن بُنيـات الطـريقِ

وقوله ، وقد استعمل (السبيل) بــدل (الطـريق) :

وعددتُ مما دهاني الحـزم في عَبَثٍ ‏ مما به من بنيات السبيل دُمى(٨)

---

(٧) تنظر الابيات في حنين الى الكلم الضائع ص٢١٢،٢٤٠،٢٣٧،٦، من ملحمة الرحيل ص٢٣،٩٢،٣٧٣ .

(٨) ينظر حنين الى الكلم الضائع ص٣٨٥ ، من ملحمة الرحيل ص١١٩،٢١٩.
وينظر كتاب حديث السنين ص٢٥،١٣٨،١٣٩ وفوات ما فات من حديث السـنين ص١٢،١٦٣،١٧٩ .

وهو استعمال قديم ، وفي (لسان العرب) لابن منظور (بنو) أنها « الطرق الصغار وقد تتشعب عن الجادة » واستعملها في العصر الحديث مصطفى صادق الرافعي في كتابه (على السفود ص٣٨) ومحمود شاكر في كتابه (برنامج طبقات فحول الشعر ص١٢٦) ، وكان الاقيشر قد ذكرها في شعره ، قال :

وهذا الحق ليس به خفاء ودعني من بنيات الطريق

وذكرها الميداني في (مجمع الامثال ــ ١٤١٤) وأراد بها : « عليك بعظم الامر ودع الروغان » .

وقوله ة

أحيز عني عامر" عافه غيري وهل في القوس من منزعِ

من قولهم : « لم يعد في القوس منزع » ، أي لم يبق شيء .

وقوله ة

شالت بهم نعامة فأين لي من وَزَر

من المثل « خفت نعامتهم » أو « شالت نعامتهم » اذا ارتحلوا عن منهلهم وتفرقوا .

وقوله ة

أُعيذكَ أنْ تَرضى بجعجعة ولا ترى طِحْنَ ما يشقى به أي بائع

من قولهم : « أسمع جعجعة ، ولا أرى طِحنا » يُضرب مثلا لمن يعد ولا يفي.

وقوله ة

وكأننا لحم الى وضم وقد استبيح اللحم والوَضَم

وهو استعمال قديم ذكره اصحاب البديعيات في بديعياتهم ، والوضم خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم ، والمثل « ان النساء لحم على وضم » يروى عن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ .

وقوله :

ورحْنا الى قَبْضٍ من الريح آخذ بكل قبيح بيننا اليوم شائع

وعبارة « قبض الريح » شائعة ويراد بها لاشيء .

وقوله :

إن قلت فيها لا يصح بما حوت إلا الصحيح

وعبارة « لا يصح الا الصحيح » من الكلام الشائع .

وقوله :

قلبوا لنا ظهر المِجَنّ بما حبكوه من دَسٍ وما افتعلوا

من قولهم : « قلب له ظهر المجن » يُضرب مثلا لمن كان لصاحبه على مودّة ورعاية ، ثم حال عن العهد .

وقوله :

ولم أُشِحْ عن حصاها جلّ عن شبه بل جلت فيه وليس النبعُ كالغربِ

من قولهم : « ليس النبع كالغرب » ، وجاءت في شعر أبي تمام :

تخرّصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبعٍ اذا عُدّت ولا غرب

ويراد به ليس من شجر النبع الذي تتخذ منه السهام والقسي ولا من الشجر الآخر الرخو ، أي ليس من هذا ولا من ذاك .

وقــولـــه :

وأنت مثلي حلبت الدهر أشـطره   وقد رجَعْت بأعباءٍ من الوهَـنِ

من المثل : « حلب الدهرَ أشطره » أي اختبر شـطري خيره وشـره ، ويُضرب فيمن جرب الدهر •

وقــولـــه :

أسـألْتَ جمـع الأقربـين وقـد   بلـغ الـزُّبى او جـازَ وارتفعـا

من المثل : « بلغ السَّيْلُ الزبى » والزبى جمع زُبية ، وهـي حفـرة عالية ، ويضرب مثلا لما تجاوز الحد •

وقــولـــه :

لو أنَّ ذاتَ سـوارها وافـاك منها كف لاطـم[٩]

من المثل : « لو ذات سوار لطمتني » أي لو كانت اللاطمة حرة لكـان أخفَّ عليَّ •

(٤)

وكان استلهامه في الشعر العربي القديم والحديث اكثر من استلهام النثر والأمثال ، لاطلاعه على الشعر وممارسته والوقوف على معانيه وأغراضه• ويمتد استلهامه هذا من امرىء القيس حتى ميخائيل نعيمة ومحمود حسـن اسـماعيل •

---

(٩) تنظر الابيات في ملحمة الرحيل ص٥٢، ٢٤٤، ٢٤٩ ، حنين الـى الكلم الضـائع ص١٠١ ، ٦٠٦ •

ومن ذلك قولـه :

أفنـافـئـع" أتـّـا نعيـــش   وحَسْــبُنا شِـبَعٌ" وريٌ

وهو من قول امرىء القيس :

فتوسع أهلَها أقِطا وسَمْنا   وحَسْبُك من غنىً شبعٌ وريٌ

وضمن في قصيدته « فأسعدنا بدنيانا الغبي »[10] الشطر الثاني .

وقـولـــه :

وقد كان لي من حَوْملٍ وهو مشعر   بسقطِ اللوى بين الدخول لداخلِ

من قول الاول :

قفا نبك مــن ذكرى حبيب ومنزلِ   بسقط اللوى بين الدخولِ فحوملِ

وضمن قصيدته « من ملحمة الرحيل »[11] بيت السابق

فدع عنك نهبـا صِيحَ في حجراته   ولكنْ حديثا مـا حديث الرواحلِ

وقـولـــه :

تحمل عنه عــازب كل هــمٍ   فهل يأســى اذا خبث الجديد

قريب من قول النابغة الذبياني :

كليني لهم يا أميمــة ناصــب   وليل أقاســيه بطيء الكواكب

وضمن قصيدته « من يطوى الكتب »[12] شطر بيت السابق « عصائب

---

(١٠) حنين الى الكلم الضـائع ص٧٧ .

(١١) من ملحمة الرحيـل ص١٤٥ .

(١٢) نفســه ص٦٣ .

طير تهتدي بعصائب » .

وقولـــه :

ولما دجت طخياءُ فينا سماؤها ... ورحنْتَ الى ليل بطيء الكواكب

من قول السابق : « كليني لهم ... »

وضمن قصيدته « كان هذا في حديث طائف »[13] بيت النابغة :

ولست بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تلمّه ... على شعث أيُّ الرجال المهذّب

وقولـــه :

أسفي على الجولان يفقد ربه ... ويدبّ في حوران جيش بلاء

إشـارة الى قول النابغـة :

بكى حارثُ الجولان من فقدِ ربّه ... وحَوْران منه مُوحِشٌ متضائلُ

وقولـــه :

فهـا قـد صـرّح الشـرّ ... ودَوّى المَعْقِـلُ الأشِبُ

من قول الفند الزمـاني :

فلما صَـرّحَ الشـرُّ وأمسى وهـو عـُريـانُ

وقولـــه :

وكأنـي بقـاربٍ وشـراعٍ ... راح يعلوه مُبْـرَمٌ وسَحيل

من قول زهير بن أبي سـلمى :

يمينا لنعم السيدانِ وُجدتما ... على كلِ حالٍ من سَحيل ومبرم

---

(13) نفسـه ص110 .

وقـولــه :

ويا حليفا لأشجان عركت بهــا عرك الرحى بثفال غير مطحــن

من قول زهير :

فتعرككم عَرْكَ الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فَتُتْئمْ

وقـولــه :

أيَّتها النفسُ هل الى جَزَعٍ يقتل صبرا فتَبْعَث الهمـمُ

وقـولــه :

أقصر أسىً فالخطب قد وقعا ولأنـت فيه ماتنـي جَزعـا

وقريب منه قوله :

وتقول إن ضاقت وغاب هدى قد كان ما أخشـى فأين أنـا

من قول أوس بن حجر :

أيَّتُها النفسُ أجملي جَزَعا إنَّ الذين تَحْذَرينَ قد وقعا

وقـولــه :

إنَّ الثمانـينَ وقـد جئتهـا برغـم ما كابدته من شـقاء

من قول عوف بن محلمَ الشـيباني :

إنَّ الثمـانين وبُلِّغْتَهـا قد احْوَجَتْ سمعي الى ترجمان

وقـولــه :

اقْصرْ فإنَّ الركب مرتحلُ واقنعْ بمـا يُقْضَى وما يَصِلُ

من قول الأعشى :

وَدِّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مرتحِلُ　　وهل تطيقُ وداعا أيها الرجلُ

وقولــه :

ألَمْ يأتيك والأنباء تنمي　　بها ضاق الأكارم في الرحاب

من قول قيس بن زهير :

ألَمْ يأتيك والأنباء تنمي　　بما لاقت لَبونُ بني زيادِ

وقولــه :

فإنَّ الماءَ ماءُ أبي وجدي　　وبئري ذو حفرت وذو طويت

وهو لسنان بن الفحل ، ومثله قوله ـ رحمه الله ـ :

وما أرضي بأرض أبي وجدي　　ولا بئرا حفرت ولا طويتُ

وقولــه :

شميمٌ تقاضاني العشيَّة نفحه　　فللّه مسكوب تساوى وساليه

من قول الصمة بن عبدالله القشيري :

تمتع من شميمَ عَرار نجدٍ　　فما بعد العشيَّةِ من عَرارِ

وقولــه :

والشر أبدى ناجذيه فهل　　يُلفَى بعولمة بديلُ

من قول قُريط بن أنيف :

قوم اذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم　　طاروا اليها زرافاتٍ ووحدانا

وقــولـــه :

أما والليالي الحالكاتِ لقد رمت وبعض الذي ترميه قاصمة الظهرِ

وقــولـــه :

إن تريني ألفْت قاصمة الظهر وأصْدقتْ صحبتي للكتابِ

وقــولـــه :

وإني لمحمول الى أي محنـــة ارى لي فيها بعض قاصمة الظهر

من قول الحطيئة :

ليورثها بكرا اذا ماتَ بَعْده فتلك لعمرُ الله قاصِمةُ الظهرِ

وقــولـــه :

يرون صِغارا كزُغْب الحواصلِ خمْصَ البطونِ بما يعصبُ

وقــولـــه :

واحـــرّ قلبـــي أن ارى زُغْبٌ الحواصل في اهتضامِ

من قول الحطيئة :

مــاذا تقول لأفــراخٍ بذي مَرَخٍ زُغْبِ الحواصل لاماءٌ ولا شَجرُ

وضمن في قصيدته « مع الأيام »[١٤] شــطرا لعمـــر بن أبي ربيعة وهو « بسبع رمين الجمر أم بثمان » ٠

وقــولـــه :

أقبابيٌ اللــومَ إنّ غــدا قريــبٌ وهل يُرجى لقاءٌ غدٍ حريبُ

(١٤) حنين الى الكلم الضـائع ص١٧٣ ٠

من قول جرير :

أقلّي اللوم عاذلَ والعتابا ... وقولي إن أصبتُ لقد أصابا

وقوله :

ولستُ كما شكا قِدْماً جريرٌ ... وأعوزه المرقّق والصِّنابُ

أراد به قول جرير :

تكلفني معيشةَ آل زيدٍ ... ومَنْ لي بالمرقّق والصِّنابِ

وقوله :

يا ليت أني كنت في وَقْفةٍ ... أُعيد فيها قولَ ذي الرمّه

إشارة الى قول ذي الرمة :

وأبكيه حتى كاد مما أبثّهُ ... تكلمني أحجارُهُ وملاعبُهْ

وقوله :

متى كنت في مالك نسبة ... الى الريب قل ليَ اين الغضا

إشارة الى قول مالك بن الريب :

فليت الغَضا لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغَضا ماشى الركابَ لياليا

لقد كان في أهل الغَضا لودنا الغضا ... مزارٌ ولكنّ الغَضا ليس دانيا

وقوله :

رجعت لنفسي كي ألمّ شتاتَها ... وثارت شَعاعا فانتبذتُ مساربي

وقوله :

فعدت الى نفسي ألمّ شتاتها ... وطارت شَعاعا وارتمت تتقلب

من قول قطري بن الفجاءة :

أقولُ لها وقد طارت شَعاعا ... من الابطال ويحك لا تراعي

وقولـه :

أجَلْ وحيد ومثلي كلُّ ذي نَصَبٍ ... والعمر تقطعه جِسْرا من التَّعب

وقولـه :

فلست مني وقد أورثت في زمن ... لم انجُ منه على جسر من التعب

وقولـه :

ما إنْ نزالُ نعاني شامخ الخطرِ ... ولا نزالُ على جِسْرٍ من التعبِ

من قول أبي تمام :

بَصُرْتَ بالراحة الكبرى فلم ترها ... تُنال إلاّ على جسرٍ من التَّعَبِ

وقولـه :

توفيت الآمالُ بعد أُولى النهى ... فيا دمعتي سُحي ويا عبرتي جُودي

من قول السابق :

توفيت الآمالُ بعد محمدٍ ... وأصبح في شُغلٍ عن السفَر السفْرُ

وقولـه :

أين مني رَبْعٌ بمدرجَةٍ ... أتملَّى من خده التُّرَبِ

من قول السابق :

ما رَبْعُ مَيَّةَ معمور يُطيف به ... غيلانُ أبهى ربى من رَبعها الخربِ
ولا الخدود وإن أدمين من خجل ... أشهى الى ناظري من خدك التربِ

وضمن قصيدته « مما قاله مغترب »(١٥) شطر أبي تمام : « الحرب مشتقة المعنى من الحـرب » .

وقـولـــه :

والمنايا مواثِلٌ وأنو شرْوا خشّبٌ بارقُ السنا ووعودُ

من قول البحتري :

والمنـايـا بوارق ليس فيهـا ن يُزْجى الصفوف تحت الدّرفس

وقـولـــه :

ولقد شهدتك والخطوب مُربّةٌ ومشى بها سعيا اليهـا المِنْبَرُ

فلو انّ مشتاقا تكلّفَ غير ما في وسعه لسعى اليـك المنبرُ

من قول البحتري :

وقـولـــه :

أزيدَ ليلٌ الى ليلٍ فما افترقا وغاب ما زِيدَ بالفجر الذي سرقا

وقـولـــه :

كأنّ ليالي زيدَ طول الفجر ضوء يناجيـه حديث النهـر

وقـولـــه :

أزيـدَ في ليالي لم يَنَلْه نظـري

من قول علي بن الجهم :

أزيـدَ في الليـلِ ليـلٌ أمْ سـال بالصبح سَيْـلُ

(١٥) من ملحمة الرحيـل ص٩٤ .

يـا إخـوتـي بـدُجيـلٍ   وأيـنَ منـي دُجَيْـلُ ؟

وكان ــ رحمه الله ــ يكرر هذين البيتين دائما ، منذ أن اتصلت به سنة ١٩٥٦م ويذكرهما في كتبه(١٦) .

وقـولـــه :

وخلعتُ عني ما حَمِدتُ وقاره   فاذا خلاصةُ كلّ ذاك شحوبُ

من قول أبي نواس :

وبلغت ما بلغ امـرؤ بشبابهِ   فاذا عُصارة كلّ ذاك أثـامُ

ومثله قوله ــ رحمه الله ــ :

وإذا عصارةُ كل طيشٍ يسـتخِفُّ به حريبُ

وقـولـــه :

وكنا قد أسَمْنا سَرْحَ لَهْوٍ   كأنّـا آمنون من القضـاءِ

من قول النواسيّ :

ولقد نَهَزْتُ مع الغُواة بدلوهم   وأسمْتُ سرْحَ اللهو حيث أساموا

وضمن قصيدته « من ملحمة الرحيل »(١٧) شطر بيت أبي نواس : « تقول التي من بيتها خفّ محملي » .

وضمن في قصيدته « من الأعاريب »(١٨) شطر بيت النواسي : « ليس الأعاريب عند الله من أحـد » .

---

(١٦) ينظر فوات ما فات من حديث السنين ص١٣ .

(١٧) من ملحمة الرحيل ص١٤٥ .

(١٨) حنين الى الكلم الضائع ص٦٠٨ .

وقولــــه :

وإنّـا كتـاركةٍ بيضَهـا وراحَتْ على غيره تَحْضُن

من قول إبراهيم بن هرْمة :

كتاركـةٍ بيضَهـا في العراءِ وملبسةٍ بيضَ أُخرى جَناحا

وقولــــه :

بعيدا عن الدار التي خفَّ أهلُهـا ولم يُبصروا ما يقتضي في العواقبِ

من قول دِعْبل الخـزاعي :

قفا نسألِ الدارَ التي خَفَّ أهلُها متى عهدُها بالصّوْمِ والصَّلواتِ

وقولــــه :

وكم يشقى بزاد بعـض قوم وزادي ثـروةٌ وهو الكتابُ

وردد هذا المعنى كثيرا في شعره وهو قريب من قول المتنبي :

أعَزُّ مكانٍ في الدنى سرج سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمـان كتابُ

وقولــــه :

ما لنـا كلنـا جَوٍ يتلظـى أنْعاني من عُمرنا وهو حشْوُ

من قول المتنبي :

ما لنا كلنا جَوٍ يا رسـولُ أنـا أهوى وقلبي المتبـولُ

وقولــــه :

أُعيذُها خطـرات منك صـادقةً أنْ يجتبيهـا أخـو ظلم فيختنـق

وقــولــــه :

اعيذها نظراتٍ منك صادقةً   إن تحسب السم قد تغنى به عسلا

من قول المتنبي :

اعيذها نظراتٍ منك صادقةً   إنْ تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقــولــــه :

فإنــا خَضَــعْنا لمــا نابنــا   كفى بك داءً أنْ تَرى الموتَ شافيا

من قول المتنبي :

كفى بك داءً أنْ تَرى الموتَ شافيا   وَحَسْبُ المنايا أنْ يكُنَّ أمانيــا

وضمن قصيدته « ضوى ظل الوفاء »(١٩) شــطر بيت المتنبي : « غريب الوجه واليد واللسان » .

وضمن قصيدته « يمنية عربية »(٢٠) شــطر بيت المتنبي : « ليالِيَّ بعــد الضاعنين شكول » .

وقــولــــه :

أرى العراق طويلَ الليل لست لــه   الى الذي هامَ في نجواه ســامِرُهُ

من قول المتنبي :

أرى العراقَ طويلَ الليل مُذ نُعيت   فكيف ليلُ فتى الفتيانِ في حَلَبِ

وقــولــــه :

أفأمَّــةٌ تشــقى بظــالمهــا   ويروح وهو العادلِ الحكَمُ

---

(١٩) حنين الى الكلم الضــائع ص٣٧١ .
(٢٠) نفســـه ص٦٦٢ .

من قول المتنبي :

ـ يا اعدل الناس إلا في معاملتي   فيك الخصام وأنت الخصم والحكمُ

وقـولــه :

ولكم رفعتُ عقـيرتي وبهـا   أسمعت من أخْنى به صَمَمُ

من قول المتنبي :

أنا الذي نظر الاعمى الى ادبي   وأسمعت كلماتي مَنْ به صممُ

وقـولــه :

شاخ الزمان فلا جديدٌ يشتهى   ممـا يُنَشَّـأُ بيننا وربيبُ

من قول المتنبي :

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته   فسرَّهم وأتيناه علـى الهَرَمُ

وقـولــه :

لكنْ عذيري مـن جهـابذةٍ   أني امرؤ أزْرَى به الدَّهْرُ

من قول أبي فراس الحمداني :

فقالت لقد أزْرَى بك الدهرُ بعدنا   فقلت معاذ الله بل أنتِ لا الدَّهْرُ

وقـولــه :

وأذكر أني قد تلفتُّ مُرسلا   الى الدار عيني والحمى والخمائل

من قول الشريف الرضي :

وتلفتت عينـي فمـذ خَفيتْ   عني الطولُ تلفَّـتَ القلبُ

وكان ـ رحمه الله ـ معجبا بهذا البيت ويردده في كتبه(٢١) .

وقولـــه :

خَفِّفِ الـوَطْءَ فالثرى عَطِرٌ ألَـقٌ باهِـرُ الشَّـنا صُوَرُ

من قول أبي العلاء المعري :

خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظـن أديـمَ الارض إلاّ مـن هـذه الأجسـادِ

وقولـــه :

تثاءب عمرو وافضـى الـى علالـةِ ظمـآن لا تسـكب

من قول المعـري :

تثاءبَ عمرو إذْ تثاءبَ خالـدٌ بعدوى فما أعدتنيَ الثؤباءُ

وقولـــه :

ورُحْتُ لأشرفِ الشجر انتماءً بواسقَ نالهـا وَعَثا شحوبُ

من قول المعـري :

وَرَدْنا ماءَ دجلةَ خيرَ ماءٍ وزُرْنا أشرف الشجرِ النخيلا

وقولـــه :

فلم تكن لي أسيرات الحجول بـه لكنْ الى الحـي قادتني مفاخـره

إشـارة الى قول المعـري :

ويا أسيرة حجليها أرى سَفَهًا حمل الحليّ لمن أعيا عن النظرِ

---

(٢١) حديث السـنين ص٣٥١ .

وقــولــــه :

فهل أقول ولي في الحلق كل شــجا   لا ناقــة لي في أمــري ولا جمــلا

وقــولــــه :

أنــا لا أقول بكل مشــرقةٍ   لا ناقتــي فيهــا ولا جملــي

من قول الطغــرائي :

فيمَ الاقامةُ بالزوراء لا سكني   فيها ولا ناقتي فيها ولا جملي

وضمن قصيدته « فوز وأريج »(٢٢) شطر بيت ينســب الى ابن الفارض وهو « والله أعلم بالسرائر » .

(٥)

وقــولــــه :

ســكنت قلبــي فكــان بــه   علــق اذكى ســخيٌ دمــي

من قول احمد شــوقي :

جحدت عينــاك زكيٌ دمــي   أكــذلــك خــدكَ تجحده

وقــولــــه :

لست ذاك الهزار في قول شوقي   بــل حنيني للطير من كلِ جنسِ

من قول شــوقي :

أحــرامٌ على بلابِله الــدوْ   حُ حلالٌ للطير من كلِ جنس

(٢٢) حنين الى الكلم الضــائع ص٢٦ .

وقـولـــه :

بي مِثـلُ ما بك فالأسى قـــدَرٌ لنـا وبــه نَديـنُ

من قول شــوقي :

بي مِثلُ ما بكِ يا قُمريةَ الوادي ناديت ليلى فقومي في الدُجى نادي

وقـولـــه :

فقلت : هل طارِقٌ طيفا يعيد هوًى وأين ذاك وقد شَيَّعْتُ أحــلامي

من قول شــوقي :

شَيَّعْتُ أحلامي بقلب باكِ ولمحت من طُـرقُ الملاح شِـباكي

وضمن قصيدته « عرفت بتيه عمان مكاني »[٢٣] شطر بيت شوقي « رباع الخلد ويحك ما دهاها » .

وقـولـــه :

ضَيَّعتُ بين البان والعَلَمِ وقبَستُ من أثر ونَفْحِ دمِ

من قول شــوقي :

ريم على القاع بين البـان والعلمِ أحلَّ سَفْكَ دمي في الاشهرِ الحرم

وقوله في اللغة العــربية :

حوت لآلىء لم تعرف بعامرةٍ من اللغات التي خلّت الى الجشبِ

من قول حافظ ابراهيم :

أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامِـنٌ فهل سألوا الغواص عن صدَفاتي ؟

(٢٣) من ملحمة الرحيـل ص٢٣٧ .

وقولـه :

أخي غاصـت بنـا الركبُ وقـد ضـاقت بنـا الرحبُ

من قول ابراهيم اليازجي :

تنبهـوا واستفيقوا أيّهـا العرَبُ فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

وقولـه :

عِمي صباحا نبعةَ الأصـائلِ جـادَكِ غيثي ووفاكِ نائلـي

من قول عبدالمحسن الكاظمي :

عِمي صباحا أيّهـا المنـازلُ وردّدي لحنـك يـا عنادِلُ

ضمن قصيدته « آلام »(٢٤) بيت حبيب العبيدي :

لحصاها فَضْلٌ على الشهبِ وثراها خيرٌ مـن الذهَبِ

وقولـه :

نظرنا الى هذا الزمان فرابنـا به ما بنا من ترّهاتٍ وباطلِ

من قول معروف الرصافي :

نظرنا لأمرِ الحاضرينَ فرابنا فكيف بأمرِ الغابرين نُصدّقُ

وقولـه :

كأني إذ تقاصرَ ظـلُّ يومي أخو سَفَرٍ يهمُّ الى الأهابِ

من قول الرصـافي :

سكنْتُ الخانَ في وطني كأني أخو سَفَرٍ تقاذَفَه الدروبُ

---

(٢٤) حنين الى الكلم الضـائع ص٨٤ .

وعِشْتُ معيشة الغرباء فيه   لأني اليومَ في وطنـي غريب

وقـولــه :

أحبولـة رثـت وزمـرتهـا   ماضـون في إحكام ما نصبوا

من قول الرصـافي :

أحبولة الدين رثت من تقادمها   فاعتاض عنها الورى أحبولة الوطنِ

وقـولــه :

ومن عجـب وحاضرنا شقيٌ   يحث بنـا الى الموت الزؤامِ

من قول الرصـافي :

وهل إنْ كان حاضِرُنا شقيا   نَسودُ بكون ماضينا سعيدا

وقـولــه :

من أين تطلب للعراق وسـيلة   وسبيل من ظلموه غير سبيله

من قول الرصـافي :

من أين يرجى للعراق تقـدم   وسـبيل ممتلكيـه غير سبيله

وقـولــه :

وكان لي في ذرى صوت ألوذ به   لوذَ الذي قد برَاه الهمُّ والسقم

من قول محمد مهدي الجواهري :

حييّتُ سفحك ظمآنا ألوذ به   لَوْذَ الحمائم بين الماء والطين

وقـولــه :

ولربمـا قاسـيت قافيـة   وببعضها قِطَعٌ مـن الكبدِ

من قول محمد رضا الشبيبي :

ليس هذا الشعرُ ما تروونه   إنّ هذا قِطَعٌ من كبَدي

وقولـه :

يا سامرَ الحيّ لا أدريك ذا رَشَدٍ   فكم تغنيت تحكي بؤسَ مَنْ حرما

من قول بدوي الجبـل :

يا سامرَ الحي هل تعنيك شكوانا   رَقّ الحديدُ وما رقّوا لبلوانا

وضمن قصيدته « بلاد العرب أوطاني »(٢٥) هذا المقطع لفخري البارودي:

وقولـه :

لقد خَمَدَت بنا الأرض   فهل عوّضني الناس

وقولـه :

قد اسودّت بنا الدنيا   ولفّ نهارَها دجنُ

من قول ميخائيل نعيمة :

لقد خَمَدَت بنا الدنيا كما خمدت بموتانا

وقولـه :

مسافر زادُه غثاءٌ   من عبث الليل والنهار

وقولـه :

مسافر زادهُ همومٌ   يموت فيها ولا تزولُ

من قول محمود حسن اسماعيل :

مسافر زادهُ الخيالُ   والسحرُ والعِطرُ والظلالُ

---

(٢٥) نفسه ص٨٨ .

(٦)

وقولـــه :

ماذا وقـد خلت الديـار فلا يرى إلا المليح

إشارة الى ما نُسب الى آدم ـ عليه السلام ـ

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليهـا   فَوَجْهُ الأرض مُغبر قبيحُ

وضمن قصيدته « هي المنى »(٢٦) البيت :

يزملون حنين الضعـن بينهم   والضعن اصهب أو في وجهه كَلَفُ

وضمن قصيدته « الى المصطفين الأخيار »(٢٧) الشطر : « أشـتى تؤوب بنـا الحالبات » .

وقولـــه :

قالت حذامِ ومن يكذبها إذا قالت حذامِ

من قولهـم :

اذا قالت حذامِ فَصدّقوهـا   فإنّ القولَ ما قالتْ حَذامِ

وضمن قصيدته « طلبت الرضى »(٢٨) الشطر :

« حملناك حمل العين لج بها القذى »

---

(٢٦) حنين الى الكلم الضـائع ص٢٧٣ .

(٢٧) نفسـه ص٥٠٤ .

(٢٨) من ملحمة الرحيـل ص٢٠٣ .

وضمن قصيدته « العدوان الآثم على العراق »[٢٩] الشطر :

« عرب رأيت أصحّ ميثاق لهم » : « ذم المنازل بعد منزلة اللوى » .

وقـولـــه :

يا أم عمرو مشيناها خطى لهبا — وقد شقينا بها شيبا وولدانا

وقـولـــه :

أخي البعيد مشيناها خطى كُتبتْ — في كل شبرٍ صلينا جذوة اللهب

من قول المتقـدم :

مشيناها خطـى كتبت علينـا — ومن كتبت عليه خطى مشاها[٣٠]

هذا ما وقعت عليه من استلهام في شعره ــ رحمه الله ــ وقد تكون هناك استلهامات أخرى ندّت عن الملاحظة ، وتجافت عن العين .

---

(٢٩) نفســه ص١٨٤ .

(٣٠) وبعــده :

ومـن كانـت منيتـه بأرض — فليس يمـوت في أرض سـواها

والبيتان مشهوران ، ومذكوران في كتاب (الف ليلة وليلة) .

الملامح

(١)

الملامح جمع لَمحة ، وهي ما بدا من محاسن الوجه أو مساويه ، ويُراد بها هنا السمات العامة للشعر . وكان – رحمه الله – قد نظم الشعر منذ صباه :

صحبتُ منها حِسانا والصِّبا غَرِدٌ فليتها تتصبّاني على كِبرَي
غنيت بالأمس من صفوٍ بها مرحا وبارعات من الألحان في أثري[1]

وكان الشعر منذ أن خطا الخطوات الاولى في التعلم يهزه ويثيره ، وأخذ يحفظ الكثير منه ولا سيما الشعر الرائع الذي يقدم في المدارس يومذاك ، وأصبح الشعر سميره وأنيسه ، وأخذ يتصبّى له :

أتصبّى لواعدِ النغمِ وشفيعي من بارع الكلمِ
وقوافٍ قد بتُّ أكرمها نفثات من بارع النغمِ
هُنَّ مني صحابة ولقد جمعتنا لواعج الرحمِ
إنْ تداعين في الرضى فلكم كُنَّ بَعضَ السبيل للألمِ
لستُ أُخفي لهنَّ من كلفي وحنيني فهنَّ من حُرَمي
ماء عيني ولاعجتي ودمي نَغَمٌ موجعٌ جرى بفمي[2]

---

(١) حنين الى الكلم الضائع ص٩٧ .

(٢) نفسه ص٥٠ .

وظل ينظم الشعر الى آخر حياته ، وإن قلّل منه في أثناء انصرافه الى الدراسة في باريس واشتغاله بالتدريس بعد عام ١٩٥٦م • وقد تدفق شعره في أثناء هجرته التي امتدت من عام ١٩٨٢ الى عام ٢٠٠١م حيث ودّع الحياة في عمان • وكانت الغربة تحيط به من كل جانب ، وليس كالشعر ما يُنْسي آلامها ، وقد بدأ رحلته الشعرية الجديدة بعد وصوله الى الاردن ، وفي أواخر عام ١٩٨٢ أرسل بقصيدة الى جريدة الرأي الاردنية وقدّم لها بكلمة وجهها الى المحرر الثقافي في الصحيفة قال فيها : « كنت أعاني هذا المِراس من قول الشعر أيام الشباب ، فلما شغلتني عنه دواعي البحث والدرس انقطعت عنه ، فلم يكن لي شيء منه • ولقد كنت قد تلقيت أحداث بيروت وما كان فيها من الفجائع بكثير من الغضب ، وقد عرض لي أنْ أستجيب الى هذا الغضب الذي يأخذ عليّ كل وجه ففزعت الى ما كنت أحسبه ضربا من عبث الصّبا ، فلم يأتني منه شيء أقوى من الغضب ، وأقسى مما أنا فيه من عنت القهر والبلاء •

وما كان لي من ذلك غير هذا الكلم النظيم الذي أتلمسه يسعى اليّ بخطى عاثرات ، وقد رأيت ألاّ أفرض عليه من العزلة ما فرضته على نفسي ، فقلت : لعلي أجد له مكانا في رحب إحدى صحف هذا البلد الأصيل » •

إنْ تريني كفرت بالنعم — وسبيلي قطيعة الرحمِ
فعذيري أني لمن شيّعٌ — خفروا بالعهد والذممِ
وفصول للظلم أيسرها — حين حلّ البلاءُ سفكَ دمي
أأُباهي وقد مشت مِحَنٌ — أنّ أهلي من خيرة الأممِ (٣)

---

(٣) حنين الى الكلم الضائع ص٢١٩ •

ومعظم شعره الذي ضمه ديواناه شكوى من الغربة ، وما عانى فيها بعد أن ترك الوطن وتنكر له الإخوة . إنّ قصائده أنّات مغترب عصفت به الحياة :

قصيدة رُحْتُ أُعلي من عمارتها وقد تعالت بها أنّاتُ مغتربِ
باهتْ بيانعةِ الألفاظِ مُتْرفةٌ وغانيات من الأتراب والعُرُبِ[4]

نشر في حياته بعمان سنة ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م ديوانه الاول « حنين الى الكلم الضائع » في (٧٧٨) صفحة ، وأعد ديوانه الثاني « من ملحمة الرحيل » للنشر وصدر بعد وفاته بعمان ــ أيضا ــ سنة ١٤٢٢هـ ــ ٢٠٠٢م في (٣٩٢) صفحة ، قال عنه : « لديّ بعد ديواني الذي وسمته بـ « حنين الى الكلم الضائع » شيء وسمته بما بدا لي بـ « ملحمة الرحيل » فلعل الله يؤتي من من نعمه الكثيرة فيكون لي أنْ أنشر هذه الملحمة الكئيبة »[5] .

وله غير هذين الديوانين شعر تركه في بغداد ، وهو الشعر الذي نظمه قبل مغادرة العراق سنة ١٩٨٢ ، قال في مقدمة قصيدة « مع الزمان »[6] : « وهذه أبيات لي لعلها ترجعُ الى ما يقرب من ربع قرن ، ولها نظائر أخرى كنت أثبتها في ورقات وأخرى بما نشر في صحف تلك الايام فنقدت بها صلتي ، وأما ما كان في أوراقي فقد بقي كثيره في خزانتي ببغداد ، ولعل شيئا من ذلك بقي حبيسا في أوراق أودعتها في ثنايا كتب كنت أطالعها » . وليته أخذه حينما زار بغداد في شباط سنة ١٩٨٩م ، لتلقي تلك القصائد ضوْءاً على مسيرته الشعرية قبل أنْ تلفه الغربة ويهصره البعاد . هذا فضلا عما ضاع من شعره ، قال وهو متجه الى فرنسة سنة ١٩٤٨ : « لم يكن لي

(٤) نفسه ص١٥٥ .
(٥) فوات ما فات من حديث السنين ص١٥ .
(٦) حنين الى الكلم الضائع ص١٠٤ .

ما كان لي في رحلة العذاب ، ولكني نظمت شعرا ضاع أكثره مني ، وذلك أني على ما أنا فيه من شجا ذهب عني ما قلت بسبب الدرس »[7] .

كان — رحمه الله — محبا لشعره ، كثير الحديث عنه ومناجاته في قصائده ، شديد الاهتمام والاعتزاز به[8] ، وكان الشعر سلواه بعد أن فارق الوطن ، ولم يبقَ عنده ما يستعين به على بلواه :

سلاني العمرُ لم أُدرِكْ سماحته ... ولم أنلْ منه ما قد ضيم من وطري
ولا حبتني سويعاتٌ فراهتها ... وذيد عنيَ ما عُوجلت من سَمَرَي
لم يبقَ لي غير ألحان أُجيل بها ... هَمْسَ القوافي التي سارت بها غرري
قد رحت فيها اسرّي الهم في لطف ... واستعين عليه لوعةَ الوبرِ[9]

ليس في ديوانيه قبل الغربة سوى (٤٨) قصيدة ، وأقدم قصيدة منشورة من هذه المرحلة هي « ساعة »[10] التي نظمها في الخامس من أيار سنة ١٩٤٢ ، و « أخي الاستاذ »[11] التي أرسلها الى شاعر الاردن مصطفى وهبي التل (عرار) سنة ١٩٤٢م ، وقدّم لها برسالة قال فيها : « لقد فجئت وأنا أنظر في المجلة الثقافية بملف جُعِلَ للاستاذ الشاعر مصطفى وهبي التل ، وقلت : ما بال إخواننا من الاردن لا يحفلون بالتواصل معنا نحن غير الأردنيين ليكون لنا معهم مشاركة فيما هم فيه . لقد عرفت عرارا سنة ١٩٤٢ حين نُشر له في صحيفة بغدادية أظنها (الحوادث) بعض المقطعات فوجدت فيها أصالة الشعر . لقد حفزتني تلك المقطعات أن أنظم قصيدة وأبعثها اليه الى إربد ، ولم أكن أعرف العنوان ، وحَمِدْتُ الله أن وصلت ، فكتب

---

(٧) حديث السنين ص١٤٠ .
(٨) ينظر حنين الى الكلم الضائع ص١١ ، ٩٧ ، ١٣٦ ، ١٥٥ ، ٢١٣ ، ٢٥٦ ، ٣٣٠ ، ٣١٠ ، ٤٥٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٥٩ .
(٩) حنين الى الكلم الضائع ص٤٠٢ .
(١٠) نفسه ص٢٤ .
(١١) من ملحمة الرحيل ص١٦٧ .

لي رسالة ثم أخرى ، وأجابني خير جواب • جميع هذا في أوراق في خزانتي ببغداد ، ولا أدري ماذا حل بها ، ولكنني ما زِلْتُ أذكر أبيات هي من قصيدتي الى الشاعر ـ رحمه الله ـ » :

شممت عطرك في همي وفي أدبي   وشَمِت برقَك يَهْمي في سنا لهبي

وما تذكره ستة أبيات ، ولعلها تنشر كاملة إن تهيأت الأسباب لاصدار ديوان ثالث •

وكان قد نظم ما نشر من المرحلة الاولى في بغداد وباريس وتونس ، وهو ما يشير اليه تأريخ القصائد ، إذ نظم في بغداد (٣٥) قصيدة ، وفي باريس (١٣) قصيدة ، وفي عمان (١٩٥) قصيدة ، وفي صنعاء (١٣٢) قصيدة ، وفي تونس واحدة ، وفي اوبسالة بالسويد (١٢) قصيدة ، وفي الدار البيضاء (٣) قصائد وفي الرباط واحدة •

وفي ديوانيه قصائد لم تذكر أماكن نظمها وهي (٥٢) قصيدة ، وتأريخ نظمها أو موضوعها يدل على المكان ، وعدد القصائد المؤرخة (٢٣) قصيدة نظم بعضها سنة ١٩٤٢ في العراق ، ونظم بعضها بين سنة ١٩٨٢ و ٢٠٠٠م أي خارج العراق ، في عمان أو صنعاء • ويعرف مكان نظم الباقي من موضوعاتها وأكثر ما نظم في عمان وصنعاء شكوى وتحسر على الماضي ، وما عاناه في غربته ، والحنين الى العراق ، وتمني العودة اليه والى داره ليبث نخلته وزيتونته شجونه ، ويراجع أوراقه التي تركها يوم وَدَّعَ بغداد سنة ١٩٨٢م •

(٢)

كان شعره ينبع من معاناته ، ومن ثقافته التي كان طابعها العام التراث كما يتضح من كتبه وبحوثه وإن انتفع بالمناهج الحديثة والنظريات اللغوية

الجديدة ، والمستجدات التي لم يبهر بها كغيره ممن لم يُحَصِّنْ نفسه بالثقافة العميقة . وكان يقول عن الجديد : « ألا ترى أنَّ التوجه الجديد في النقد منذ زمن ما أسموه البنيوية وما جدّ بعدها من الردّ عليها وإبطالها ، لم يصدر من لدن أهل علم ، وأنا لا أبرىء الغربيين من هذا التوجه الكاذب الى معرفة جديدة لديهم ، وليس مما أقيم على أسس واضحة »(١٢) . وقال : « إنهم يشيرون — مثلا — الى البنيوية ، ولكنهم لم يعرفوها ، ولم يدركوا ابنية في الكلمة وصلتها بالاخرى والاخريات ، ولمَ هذا فانهم عرفوا بالاسم (نومان تشومسكي) ، ولو سألت أحدهم من الكبار بينهم ما الذي قرأ له من كتبه لما ظفرت منه بجواب »(١٣) . ولم يقل هذا عن جهل وإنما عن إدراك للاتجاهات التي تروج في ساحة النقد والادب واللغة في هذه الايام ، وتكاد تحسر بعد أن تخلّى عنها مروجوها الذين لم يكونوا في الاصل أدباء أو نقادا.

ويبدو أثر التراث العربي واضحا في شعره ، إذ استلهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب نثره وشعره ، وأولى التراث اهتماما كبيرا ، وقارنه بجديد العصر :

هي الدنيا وما تهبُ ... وصفوُ نعيمها حَرَبُ
تُطالِعنا بزخرفها ... فتأسرنا ونضطربُ
ركبنا ثَبَجَ الجدّ ... فعاد كأنّه لَعِبُ
خَبطنا في تراثٍ ... لاح منه بائس خربُ
وصغناه كما نهوى ... ويقضي الدس والكذِبُ
ورُحْنا منه في شظف ... علاه غامر تَرِبُ

---

(١٢) حديث السنين ص١٨٦ .
(١٣) فوات ما فات من حديث السنين ص١٥٩ .

أيسمو بَهْرَجٌ كذِبٌ ويخبو لامعٌ ذَهَبُ
ويحدونا غثاء العصر يغوينا ونجتلبُ
عجبت من الزمان الصَّعبِ يُشقينا ونحتربُ
ونهوى كلَّ بارقة لنا ببريقها أربُ(١٤)

وشعره موزون مقفّى ، إلاّ قصائد قليلة نوّع فيها القافية ، والوزن عنده مهم لأنه « أداء موسيقي لا يتحقق إلا بشيء من الحركات ، فإنْ كان هذا فلك أن تعجب وتطرب ، والطرب هزة عاطفية تأخذك حزينا كنت أم سعيدا »(١٥) . وكان يؤذيه انتقاد الشعر الموزون المقفى الاصيل ، ففي سنة ١٩٩٨ نشر أحدهم مقالة في مجلة (العربي) الكويتية نال بها الشعر العربي ، فقال ــ رحمه الله ــ : « عجبت أن يرفع عقيرته أحدُ نقاد العصر مستظهرا بأستاذيته والدكترة التي يشمخ بها ، وبما هو من أهل الحداثة فينال من أهل الموزون المقفى في سائر عصوره »(١٦) . وقد نسي ذلك الكاتب أن الشاعر القديم « ذو سطوة وذو جبروت يفرض على سامعيه من نقاد وغيرهم ما يراه هو ويرضاه ، ولكنه لا يرسل القول جزافا ، بل ينظر فيه ويقلب النظر »(١٧) .

لم يكن بعيدا عن العصر ، فقد عاش الثقافة الجديدة وعرفها منذ أن كان طالبا في باريس ، وتابع الاتجاهات المختلفة ، ولكنه لم يُبهر بكل ما قرأ ، إذ كثير منه لا يرقى الى التفكير السليم ، والى المستوى الفني الرفيع :

لا تسلني عن الجديدِ فما ضامَ من شعرنا دجى هرمِ

---

(١٤) حنين الى الكلم الضائع ص٢٤٨ .
(١٥) فوات ما فات ص١٧ .
(١٦) نفسه ص٦١ ، وتنظر ص٦٣ .
(١٧) نفسه ص٧٦ ، وتنظر ص١١ .

وغـريـب زهـا بغـربتـه في بَهيـم مثوبٍ من الظلام
أجـديـد" وملـؤه لغـز وعظيم وليس من عظـم (١٨)

وقال عن الجديد الذي يخطف الأبصار :

يُعْشيك بل يَغشاك وهو الخطْبُ والليلُ الدجيّ
إنّا ليخطفنا الجـديدُ يسـوء مَعْـدِنه البـذيّ
ويـروح كـل مضـيّع بغثائـه وهـو الحفـيّ
بتْنا نَعافُ السَّمْحَ شابَ بهاءَه الخبثَ العربيّ
أنَهـم للجشـب البغيض ولا يلـذّ لنـا النـقيّ
أفمـا جرينا في سَـخيف القـول يغلبنا الـرويّ(١٩)

والغرابة في بعض الشعر الجديد هي التي تنفره منه لأنه ألغاز ، في حين أنّ الشعر رسالة للناس فيه متعة وهدى . وبعض ما ينشر من شـعر قرزمة تصدم أذواق المتلقين ، والشعر الجيد هو ما كان فيه شفاء للنفوس :

إنّ الأُلى صرفوا الى عبث اللغـى حَسِبوا غُثاءَ السَّيْلِ عِلْقا قيما
زَبَدٌ جفاء لَسْتَ فيه واجـدا دُرَرا أبَتْ إلا المحيط العَيْلما
هو دأبُ مَنْ لا تُبتلـى بجريضه إلا دهـاك بمـا أغثّ وقـرزمـا
قد ظـن ما يهذي بـه أُعجـوبةً فمضى وأرسـل جهـله وترنمـا
دَعْ عنك قَرْزَمَةً تفاقـم خطبها واخلُدْ الى غُررٍ تعودك بلسما
وتحـرّ فنـا تلقـه أُكـرومـةً روضـا فتلقـى فيـه طيرا حـوّما
ما خطب هذا العصر قد ألْوَتْ بـه شِيَعٌ تخطفتِ البلاءَ الأعظما(٢٠)

---

(١٨) حنين الى الكلم الضـائع ص٥٠ .
(١٩) نفسـه ص٣٤٥ . الجشب : الغليظ من الطعام .
(٢٠) نفسـه ص٢٢٢ . العيام : البحـر . الجريض : الريق يغص بـه ، والجريض : المغمـوم .

وهذا الشعر الذي تلوكه بعض الألسن ، وتسوّد به الصحف أوراقها ليس من العذب النمير :

إنّ التي باتت يَهمّك خَطْبها ... ذلّت وصرّح شائنٌ ومعيبُ
هي ما يُلاك من الجريض وقد خلا ... من كلّ ما يصفو به ويطيبُ
كابٍ فليس يَشِفُّ عما خلفه ... وعمٍ تعاوره أغثُّ جَشيبُ
أيُصار للفكر السنيّ بباطلٍ ... رَثٍّ وهل يُبديه وهو مشوبُ
ونجيء للأدبِ اللُّباب بخاملٍ ... غَثٍّ تخلل صفحتيه ثقوبُ
أينال أصحابُ الجديد مقالةً ... فينا وهل يرقى اليَّ مُجيبُ
شاخَ الزمان فلا جديد يُشتهى ... مما يُنشأ بيننا وربيب(٢١)

لقد بَعُدَ هذا اللون من الشعر عن الأصالة ، لأن الشعر ليس كلاما عابرا وإنما هو نتيجة جهد وصقل حتى يخرج كالذهب الإبريز ، والنغم العذب الذي يهزّ النفوس ويسحر القلوب :

إنّا نَسِنا ما اللحونُ وما الرّوِي وما يُجيرُ
بالمحدَثاتِ وهُنّ بَعْضُ ضلالةٍ فيها ندورُ
حِيزَتْ عن الفنّ الأصيلِ رؤى تهضمها شعورُ(٢٢)

وليس كل ما ينظم شعرا أصيلا ، وإنما الاصيل ما خرج من يَدِ صَنّاع :

وما زدت إلاّ في أديب توافدت ... اليه حِسانٌ بل كرائمُ خاطبِ
أغاريدُ لم تملك لها غير آلةٍ ... من اللفظ لا يسمو لها إيّ طالبِ

(٢١) نفسه ص٢٨٦ . وفي قوله : « كاب فليس يشف عما خلفه » اشارة الى البيت :
ثوب الرياء يشف عما تحته ... فاذا اكتسيت به فانك عار
(٢٢) من ملحمة الرحيل ص٦١ .

ظِماء الى وَجْدٍ كأنّ رَويّه   أتيٌّ تمطّى سِحْرُهُ غير ناضبِ
وكان له أدنى من السحر والندى   فشعشَعَ فيه كل حرّان لاهب
فطوبى لسِرّ صانه ذو درايةٍ   وذو صنعةٍ في فنه غير ناصب[٢٣]

لم يخدعه الجديد ومضى يُعرِبُ عن موقفه :

أبثك أننّا أبناءُ عَصْرٍ   شُغِفْنا بالجديدِ من الخِصالِ
وأنّا كلّ يوم في شريفٍ   جَرينا فيه من حال لحالِ
ولكنّي ادّخَرتُ ولا أُحابي   ولازَمْتُ الأصيلَ فما أُبالي[٢٤]

وذهب الى مثل هذا في الفنون الاخرى ، قال : « وقد يكون نظير هؤلاء اولئك الذين أمسكوا بالفرشة والاصباغ الذين استثمروا جرأتهم فصنعوا اللوحات وأبوا على المشاهد إلا أن يقول : هذا هو الفن التشكيلي ، وضاع في زحمة هؤلاء ــ وهم كثيرون ــ صاحب الفن ومن له مَسْكة" فيه وغيرة الجرىء وكأنه يقول : فاز باللذة الجسور . ولك أن تذهب الى من ينحتون ومن يعملون في الطين وغيره ، فيشمخ كل منهم بأنه الفنان ، وليته عرف دلالة (الفنان) في عربيتنا القديمة . وليس لك أن تستثني من أصحاب الجرأة الذين لم يَشْقوا بالدرس أحدا ممن يلغط بالموسيقى والغناء والفلسفة ادعاء ما لم يكن من هؤلاء القاعدين الكسالى ، وليس لأي منهم أن يقول ما قاله الشاعر القديم :

فلا وأبيكَ ما يُغني غنائي   من الفتانِ زُميلٌ كسول[٢٥]

وكان بعض الشعراء الجدد قد أغرموا بالاساطير تقليدا لشعراء الغرب ، وهو ــ رحمه الله ــ ينزّه الشعر من أن تحشر الاساطير فيه ، وقد وقف عند

---

(٢٣) نفسه ص٦٣ .
(٢٤) حنين الى الكلم الضائع ص٣٢٥ .
(٢٥) فوات ما فات ص١٥٩ .

هذه القضية في قصيدته « شكوى »[٢٦] ، وقال : « هذه نفثات أثار بها لأدب يوشك أن يتخلى عنه ذووه لعظم الحملة عليه من أهله وغير أهله من السادرين في ضجيج ما حملت اليهم المعاصرة الجديدة ، فأنا أنعى عليهم استخذاءهم واستكانتهم رجاة ألا يكونوا وقودا ظالمة » • وطاف في عدة أمور الى أن قال عن الأسطورة :

طلعتْ علي مَزْهُوا ... بألغازٍ وأسرارِ
فما أهلوكَ من أهلي ... ولا دارُك من داري
ولا لحنك من لحني ... ولا الأشعارُ أشعاري
تتيه برسْمِ آبدةٍ ... غريبِ الفنِ غَرّارِ
بخمر هي من باخوس ... لا حانةِ خمّارِ
أتزهى باسم باخوس ... وتأبى دَيْرَ دَيّارِ
وتسعى نحو سيزيف ... ولم تَسْعَ لعشتارِ
وتزورُّ عن الماضينَ ... من جِنّ وعمّارِ

وقال : « وقد هرع النفر الجديد من أهل الحداثة والمعاصرة الى الاساطير ، وجعلوها من لوازم الادب الجديد ، ولاسيما الشعر ، وقد ابتعدوا في ذلك عن أغراض الشعر الانسانية ••• وجاء صاحبنا البصري بدر السياب فتقيّلَ سبيلهم فأكثر من أساطير لا يعرفها ورحنا نجد (بروميثيوس) وغير هذا ، وكله بعيد عنه لم يفطن ـ مثلا الى (أوابد العرب) وما كان لهم من تصور بالخيال الذي ابتدعوه • وقد كان له أن يعود الى بصريته فيجد فيها حكايات أفاد منها البصريون الاوائل وعلى رأسهم أبو عثمان الجاحظ »[٢٧] • وقال : « إن لغطوا كثيرا بشأن الاسطورة فلم يهتدوا اليها

---

(٢٦) حنين الى الكلم الضائع ص٥٧ ، وينظر من ملحمة الرحيل ص١٩ •

حتى السياب الذي لحق أو ألحق نفسه بجماعة (شعر) وفيهم يوسف الخال الذي كانوا عيالا على رموز رومانية وفينيقية وإغريقية ، وليس لعلي احمد سعيد من الاسطورة ما التصق ادّعاءً وتكلفا بشهرته أدونيس »[٢٨] . وقال: « لو أن أصحاب الجديد من أهل الجد لوجدوا حاجاتهم في ايماءات المثل القديم فيما يُشار فيه الى حكاية أو خُرافة ، وفيما كان من ذلك على ألسنة الطير والحيوان ، أو ما تخيله الاقدمون من مخلوقات أو ما كان مما نسبوه الى الجن ، لو أنهم قرأوا (شياطين الشعراء) فيما ذكره المعري في (الغفران) لكان لهم ما يمدهم بشيء مما يريدون ، ولكن أنّى لهم هذا وهم أهل كسل قاعدون »[٢٩] .

كان هذا من الشعراء الجدد الذين تقمصوا الحداثة التي أصبحت في العقود الاخيرة من الزمان أحسن لبوس على الرغم من أنها عريت عن الاصول، وأصبح المتمسك بها كمن يتمسك برثّ القول :

أبرَثٌّ في القول يُنتفعُ ... وبمسخٍ في العقء يُرتدعُ
وبلغوٍ حسبته أدبا ... ولأنت المجوّف الخرعُ
أفتقوى حداثةٌ عريت ... عن أصول فكيف ترتفعُ
بخواء نخب وكيف به ... خير نهج في الفن يُتّبعُ
!فهذي أصالة طلعت ... في جَشيب يُحكى ويُقترعُ
ثم أين السمو تلمحه ... في زمانٍ بالظلم يضطلعُ
فَدَعِ القولَ إنه عَبَثٌ ... قد تحدّاه حاضرٌ بَشِعُ[٣٠]

وظل يتحدث عن الحداثة ويُظهر ما لا ينفع مما يذهب اليه بعض مؤيديها:

---

(٢٧) فوات ما فات ص٥٢–٥٣ .
(٢٨) نفسه ص١٦٢ .
(٢٩) نفسه ص١٦٤ .
(٣٠) من ملحمة الرحيل ص٥١ .

أحـداثة" يُمنى بهـا الكلمُ ... وحداثة تشـقى بها حُـرمُ
أفندعـي أن تُسـترد بنـا ... لغة تُضـام بقدسـها رَحِـمُ
أبحشـرجات راحَ يُرسـلها ... نفـر يجيء الفكر والنغمُ ؟
وبقرزمـات راح يقـذِفُهـا ... بالهُجْرِ والنظر الكليل فـمُ
وحداثة وُلِـدَت معوّقـة ... مِـسخًا فلم يسعد بها رَحِـمُ
ألقت علينا وزْرَ ذي كسـلٍ ... من بعد ما عاثت بهـا أُمـمُ
هي بعض ما قد لاكهـا نفر" ... ومضى بها يَعشى ويرتطـمُ
أفبعدَ ما رَثَّتْ وقد رُفضت ... في الغرب تأسـرنا ونلتـزمُ
فيُسـاغ فيها كـلُّ مطـرح ... ويُجاز ما يُقذي وما يَصِـمُ
أحداثة تُفضـي الى عَبـثٍ ... فيضيع في تيـه بهـا كلـمُ
ولأنت تضربُ في مجاهِلِـه ... وتخوضها فتحفك الظُلَم(٣١)

ولا يريد ـ رحمه الله أن يعيش في القرون الأولى ، وإنمـا ينفي بعض ما ينشر باسـم الحداثة وهو رَثّ غَثاء وتقليد أعمى وتمسـك بأمشـاج وأوشاب ، ويدعو الى التمسك بالنافع الأصيل ، ويحذر من الإسفاف الذي وقع فيه مَنْ لا ملكة له ولا ثقافة تسعفه في أداء العمل الاصيل . إنه يريد أن يكون الشاعر مثقفا ذا لغة سليمة ، وأسلوب رائق ، ومعنى بديع ، وحينذاك يقدر على أن يجيء بكل جديد يمثل العصر وروحه .

(٣)

اتبع في قصائده أسلوب الشـعر القديم الذي لم يغير الحداثة سـماته الأصيلة ، وكانت القصيدة عنده تأخذ خط سيرها على وَفْقِ ما تُمليه الحالة

(٣١) حنين الى الكلم الضائع ص٤٨٢ ، وينظر نفسه ص٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٤٥٧ ، ٤٨٧ ، ٥٧٧ ، ومن ملحمة الرحيل ص٥٢ ، ٦٨ ، ٨٤ .

الشعورية والوثبات التي تحدد صورة القصيدة عند انتهاء الدفقة الشعرية .

ومعظم قصائده لا تلتزم بالوحدة الموضوعية ، وإنما هي نثات تتداعى فيها الأفكار والمعاني لتعبر عن شكواه ؛ وحنينه ، وواقع العرب ، والعصر الذي انتهك فيه كل شيء . ولا نكاد قصائده التي نظمت في أزمنة مختلفة ؛ وأماكن متعددة ، وظروف متغيرة تختلف اختلافا كبيرا من حيث اللغة ، والاسلوب ، والمعنى ، إلا إذا أعاد سبك شعره من جديد قبل أن يُعدّ ديوانيه لطباعة . وقد يؤيد هذا أو ينفيه الاطلاع على القصائد المنشورة في الصحف من قبل . وتوضح التشابه في نسيج القصائد النظرة في ثلاث منها تمثل الفترة الاولى من رحلته الشعرية ، والفترة الثانية تمثل رحيله الى الاردن واليمن ، والفترة الاخيرة التي قضاها في عمان قبل رحيله عن الحياة الدنيا .

القصيدة الأولى هي « أخي »[٣٢] التي نظمها في بغداد سنة ١٩٧٥ ، وقد بدأها بالدعاء لأخيه الذي خاطبه :

أُعيذُك من عقابيل إزائي ومن محن شَقيتُ بها ورائي

وانتقل في البيت الثاني الى الحديث عن نفسه ووفائه لاصحابه وإخوانه :

وفيتُ لصحبتي والأمرُ خطب وأعظمُ ما دُهيتُ من الوفاءِ
تكلفني المروءةُ أيَّ غالٍ وكنت خبرت معتركَ العلاءِ
وكنت أصدُّ عن نفسي جنوحا متى أحسَسْتُه يرقى إبائي

وعاد الى مناداة أخيه ، ثم انتقل في المقطع الثاني الى الحديث عن الماضي حيث كان غضَّ الإهاب :

أخي كنا وكانَ العمر غَضًّا يرفُّ بسحر آمال وضاءِ
تُساعفه فيسعفنا حبيبا ويعمر رحبه رغد الرخاءِ

(٣٢) حنين الى الكلم الضائع ص٩٢ .

وانتقل فجأةً الى الحديث عن نفسه :

بنفسي بعضُ ما بي من وفاءٍ غنيت به ويُسْعِدني غنائي
نسخت بضوئه حلَكَ الليالي كأني منه في نهج سواءِ
ورُحْتُ كأنني أثرى سماحا وذاك لديّ من أزكى الثراء

ثم قال :

أخي ما زال ظلك في فِنائي أُشيم به رجائي أو عزائي

وقال بعد بيتين :

بكيت رحيل أيامي الخوالي وماذا أسْتَرِدُّ من البكاءِ

واستمر في الحديث عن الشباب وسَرْح اللهو الذي أسيم ، وختمها بحكمة:

ولكن الشباب أخو ضلال فذو الحلم الرزين كذي الغباءِ

ثم قال :

أحِنُّ لبعضِ أيامي حنينا وشَجْوا يستفز به رثائي

وانتقل في المقطع الآخر الى مخاطبة أخيه :

أخي لولا نَجِيٌّ من خيالٍ أعلّ به صباحي أو مسائي
إذنْ لرأيتني ألوتْ قناتي وكم رسخت بمشتجر البلاءِ
أخي أُنبيك أنّ الليل مُوبٍ وأنّ غيومَه غطّت سمائي
وإنّ غدا ليقذف من نثيرٍ من السوأى وليس غدٌ بنائي

ووصف حياته في المقطع الآخر :

مَشَت بَلْها بساحتي الليالي خاطنَ بصيف أيامي شتائي

وقد اورثنني غرسا وبيئا شممت بزهره خبثَ الوباءِ
وما خير مشيت اليه فيها سوى شرٍ تكشفَ عن غطاءِ

وانتقل الى عتاب أخيه :

أخي إنْ رثَّ منك قديمُ ودٍ وصار الرثُّ منه الى العفاءِ
وأعوزك الذي لابدَّ منه الى الغر الوضاح ذوي المضاءِ
فإني اليوم أقرب منك حبلا أُجدِّد ما استرمَّ من البناءِ
أعنيّ أنْ أُقرِّب منك حالي فاني قد تعِبْتُ من التنائي
وإني قد غرضت الى زمانٍ تجود به مناشدةُ الغلاءِ
رضعنا أطيبيه بلا عناءٍ وتبهجنا به مُثُلُ السخاءِ
أخي إنْ فاتني زمن التصابي وأعوزني المهذَّبُ من عطائي
وأُبت ببعض شيءٍ من متاعٍ من الذكرى أرومُ بها شفائي
فانـي قد بَرِمْتُ بباقياتٍ من الجلّى تجيء بلا مراءِ

وبهذه الأبيات ختم قصيدته بالشكوى كدأبه في كثير من قصائده .

والقصيدة الثانية هي « الى المصطفين الأخيار »(٣٣) التي نظمها في صنعاء سنة ١٩٩١م ، وقال في مقدمتها : « هذه أبيات ولا أدعوها قصيدة ، لأنَّ كلَّ بيت من هذه التي عِدَّتها أربت على السبعين بيتا مكانا في نفسي ، ولكل بيت جملة من الكلم أحببتها فعشت معها ، وعاشت معي » وهذا هو تصوره بناء القصيدة ، وعلى هذا التصور سار في معظم قصائده . بدأ القصيدة بالقسم :

بما بالعلى قسما يشرفُ وما بسواه هوى أعرفُ
لقِدْما دعرتُ عيون القوا في فكانت تجودُ بما تسعفُ

(٣٣) حنين الى الكلم الضائع ص٥٠٣ .

فتحتلّ مني فيضَ الحنين وما قد يجيء به أرهفُ

واستمر في الحديث عن شعره ، وانتقل في المقطع الآخر الى مناجاة ابن الحمى :

أُناجيك يا ابنَ الحمى بالتي تسامَتْ اليك بما يشرُفُ
تُحييك يا ابن النضال الذي يهيج الى الحق ما يعصفُ
فمن كل رَخْوٍ مشى للطغاةِ يمسّح منهم ويستعطِفُ
تداعى له جَمْعُ أسيادِهِ بما قد يَشينُ وما ينطفُ

وتحدث في المقطع الآخر عن مطلع عام ١٩٩١م :

أيمضي بنا عامنا المجحفُ بما حاك قوم وقد أسرفوا
هو العام للفيل في نسبةٍ وقد كان شرا بما يُوصَفُ

وخاطب ابن العراق :

أيا أبنَ العراق وأنت الذي علا ومن الشر مُسْتَهْدَفُ
لأنت وقد جاءت في خطبها فأدركْتَ صيحةَ ما أرجفوا

ولام العرب الذين شايعوا الاعداء على العراق :

وقد طحنَتْنا الضروسُ التي دهانا بها العاصِف المجحفُ
فَرُحْنا اليها بعزمِ الأباةِ وحزمِ الحماةِ وما ينصفُ

واستمر في رسم الصورة التي كان عليها ذلك العام ، وخاطب بعد ذلك المترفين الذين ظلوا بعيدين عن إخوانهم :

ذَروا الجدّ يا أيّها المترفونَ فما الجد لهو" ولا مقصفُ
ولا لَعِب" بفتاوى بها يُغالي ببهرجها مُترَفُ

ولا هو في سَهَرات اليا لي ولا في الذي يشتهى يُقْطف
ولا في الذي ضيم في بطنه وماذا وقد زين المعلَفُ

وعاد الى العراقي ، ودعا له بالمجد والخير :

لك المجدُ يا ماضيا في العلا ءِ الى كل همٍّ به يُكلفُ
كأن الذي ديف من عزمه رضابٌ من المرّ إذ يُرشَفُ
وماذا إذا نال من أهلنا طريقُ الشهادةِ إذ يشغفُ
ففي كل ركن أبٌ ذو هوى يُكَنّى رغالا ويستنكفُ

لقد حَصْحَصَ الحق ، وتجلّى الموقف :

لقد صرّحَ الحقُّ والموقفُ وبان الصريحُ فلا يخلفُ
وبانَ الذي راحَ من حَوْلنا لينفق من شر ما يصرفُ

وخاطب في المقطع الأخير فتى العصر ، وعرّج على اليمن ، وحثَّ على العمل ، وَرَدْع اللئام الذين يتربصون بالعباد شرا :

فيا زُمرةَ الأكرمينَ الأُبا ة أهينوا لئاما لكم تحصفوا
ولا تأخذكم جموع الطغا ة فما زال ريحُ الهدى يعصفُ
وما زال عَزْمٌ بأخيارنا يهدّم من صَرْحِ ما ينسفُ

وختم القصيدة بقوله :

بما بالذي كان من حُكْمِهِ قضاءٌ وما دونه أخلفُ
وبالمجد قد صين من إرثنا وبالحق نمضي به نهتفُ
لقد كان منا نداءُ السلا م ولم يَحْدنا الصارم المرهفُ
متى نستظل به وارفا فينساب في رحبه رفرفُ

والقصيدة الثالثة « في التيه »[٣٤] التي نظمها في عمان سنة ٢٠٠١م ، وقدّم لها بقوله : « لقد كان لي فيما شاهدت في احدى القنوات الفضائية غير مرة أن جماعات من العراقيين تذهب في التيه فاذا هي في بلد وما هم فيه ودليلهم المحتال الذي نال جزاء ما اقترف مبالغ طائلة ، وقال لهم : هذه استرالية وانصرف ، ولم يكن لهم إلا السجن » . بدأ القصيدة بمناجاة ، وأراد بها نفسه على سبيل التجريد :

إنْ شاقكَ الوادي فخذ بسبيله أو شئت دربا فاستعِنْ بدليلهِ
من أين تطلب للعراق وسيلة وسبيل مَنْ ظلموه غير سبيله

وانتقل بعد هذين البيتين الى تحية المؤمنين بأرضهم وما أصاب العراق :

أخنى عليه براجمات عذابه وبقاصفٍ نارا مشت بخميله
وابنك المطهرة الكريمة نخلة رأت الهوان بباسقات نخيله
وكأنها تشكو ظلامة أمة بليت بخطب فارتمت لمثيله
فتتابعت غير فمن شر الى شر وفصل ينتهي لفصوله
ولأنت تسأل عن كرام أهلكوا والخطب كم يفضي لشر ذيوله
لا يبعدنك عن السؤال خطيرة وتقص داهية مشت باصوله
وانظر وقيت الى امرىء رزق الحجا قد ذيد عن بلدٍ سخا لدخيله
وتأسّ في نفر تداعوا للنوى ومضوا الى النائي الى مجهوله
يسعون لا يدرون أية رحلة للسجن يتبعه ثقيل كبولهِ

وفرغ في المقطع الاخر للكريم الذي يصده زمن مشى فيه غير أصيله ، حيث تعلو الذنابى الأخبثون ، والطغاة الذين عصفوا بكل جليل :

---

(٣٤) من ملحمة الرحيل ص٣٤٨ .

من أين يأتي للرجوع نعيمُها   فيفيء ذو رَشَدٍ الى معقوله
ما زالَ ظلم الأجنبي يعينه   من قومنا جيش" غزا بفلوله
أيقال إنَّ الأقربين على هُدًى   وبذاك من يفتنْ في تأويله

وحزن على الذين هجروا وطنهم وظلوا في التيه ، وهلك كثير منهم وهم يقصدون بلادا تؤويهم • وبعد أن عبَّرَ عما جاش في صدره قال على طريقة القدماء حين ينتقلون في القصيدة من غرض الى آخر :

أنْصِرْ فكيف ترى النسيمَ يناله   من علة فلأنت كلٌّ عليله
دَعْ ذا وعدْ الى العراقِ ورَحبه   في عَرْضه مما شجاه وطوله

وخاطب أخاه في خاتمة القصيدة :

إني وأنت أخي فهل من سامعٍ   قولي وهل من مُوجع بخليله
من أين أرجو نفحة أستنشقها   من كل جَدْبٍ شقيقنا وبخيله
خلت الديار فلا صديق يرتجى   في رحبه بحزونه وسهوله

هذه القصائد الثلاث لا تختلف في نسيجها عن الشعر الذي لم تمسه الحداثة من حيث الاسلوب ، وهي أقرب الى صياغة شعر الشريف الرضي ، والمتنبي من القدماء ، وشعر الرصافي ، والجواهري من المعاصرين •

(٤)

التزمت معظم قصائده بالقافية الموحدة ، وهناك قصائد مقطعية وهي : « تطلع » التي نظمها في باريس سنة ١٩٥٣ ، وقصيدة « فتنة الرجاء » التي نظمها في باريس سنة ١٩٥٤م ، وقصيدة « أطياف » التي نظمها في بغداد سنة ١٩٤٦م ، وقصيدة « ستبقى » التي نظمها في تونس سنة ١٩٦١م

وقصيدة « بلاد العرب أوطاني » التي نظمها في عمان سنة ١٩٨٥ ، وقصيدة « مع لاجىء » التي نظمها في عمان سنة ١٩٨٥ ، وقصيدة « أين المدينة » التي نظمها في عمان سنة ١٩٨٦م ، وقصيدة « سلكت الحزم » التي نظمها في عمان سنة ١٩٨٧م ، وقصيدة « لابدّ من صنعا » التي نظمها في أوبسالا (السويد) سنة ١٩٨٨م ، وقصيدة « بل يشرق القمر » التي نظمها في صنعاء سنة ١٩٩١.

وهذا التلوين في القوافي من أثر اطلاعه على شعر المهجر ، وشعراء التجديد مثل علي محمود طه وابراهيم ناجي ومحمود حسن اسماعيل . وله موشحة ، ومقصورات على غرار مقصورة ابن دريد ومحمد مهدي الجواهري وهي : « سلام على الاكرمين » و « كلم ونغم » و « من ملحمة الرحيل » و « اين الغضا » و « في رثاء الامام الحسين بن علي ــ عليه السلام ــ » و « في ليلة رأس السنة » . وله قصيدة « في بعض منزلق ولا وطن » وهي أقرب الى الشعر الحر . وله أراجيز هي « أرجوزة » و « نست من الشجر » و « مع الامم المتحدة » و « كانت لنا عروبة سخية » .

لقد نوّع في بناء القصيدة ، وهو تنويع يسير في شعره الذي بلغ مئات القصائد ، ولم يقف عند القافية الموحدة في قصائده وإنما أكثر من التصريع ، وقد بلغ عدد القصائد المصرعة في ديوان « حنين الى الكلم الضائع » مائة قصيدة ، وفي ديوانه « ملحمة الرحيل » ستا وسبعين قصيدة .

ولم يخرج على أوزان الشعر العربي ، ومعظم قصائده من الطويل ، والبسيط ، والكامل ، والخفيف ، والرمل ، والوافر ، والمنسرح ، والسريع ، والرجز ، والمتقارب ، وهي البحور التي كثر النظم عليها .

ولم يخرج على الايقاع إلا في أربع قصائد مزج فيها بين بحرين ، أو ضربين من البحر نفسه ، والقصائد هي : « إنّ الهوى أريحية » التي جمع فيها بين الطويل الثالث والطويل الاول . وقصيدة « أخي صاحب الحرف »

التي جمع فيها بين الهزج ومجزوء الوافر ، وقصيدة « لا تعجب » التي جمع فيها بين الهزج ومجزوء الوافر ، وقصيدة « أغد تخشاه وكيف غد »[٣٥] . وكان يعقب على كل قصيدة ويذكر أنه أباح لنفسه هذا الجمع ، وبذلك سدّ باب النقد .

(٥)

كان من أثر ثقافته اللغوية وتخصصه بعلوم اللغة العربية وتضلعه منها أن ظهرت الملامح أو السمات القديمة في شعره ، ومن ذلك تسرب استعمالات هجرت الآن مثل : عمي حباحا ، حنانيك ، مَعاذ الهوى ، حدّثْ فديتك ، أقصِرْ ، تدّ ، أنِلْني ، لا أكذبنك ، أبْشِرْ ، دَعْ عنك ، أقِلْني .

وتسرب الى شعره اللفظ الغريب الذي قلّ استعماله في العصر الحديث، ولا غرو في ذلك وهو العالم اللغوي الذي كانت العربية زاده : « كانت زادي في مصادرها وأدبها ، لقد بِتُّ من طول صحبتي للعربية ممتحنا بلفظ المعاصرين في كتاباتهم ، وفيما يقولون ويخطبون »[٣٦] .

ومن الغريب الذي تسلّل الى شعره : تغوّل ، غوّل ، شام ، علالة ، شوّل ، ويبَ ، ويكَ ، عقابيل ، أغسى ، عيلم ، تطبّى ، يرمج ، رقوء ، دخن ، سجير ، غياطل ، خشارة ، قتير ، ضَرَب ، طئة ، مرزم ، قمّش ، مألكة ، جشيب ، ضبن ، مهيع ، كدع ، أخنىء ، أقد ، أدمة ، رتمة ، جريض ، حلىء ، تامك ، ردغة ، ضرير ، أكدى ، باقعة ، غضر ، خمّ ، وسوق ، لغانين، كتد ، صِاب ، تبهنس ، غَوْلَة ، أغطش ، عرام ، نيرب ، أقعى ، تنائف ، بائقة ، شزن ، وطاب ، استوسق ، بنيل . وكان يستعمل بعض الكلمات

---

(٣٥) تنظر القصائد في حنين الى الكلم الضائع ص٩٥ ، ٣٤٧ ، ٤٢١ ، ٤٩٠ .
(٣٦) فوات ما فات من حديث السنين ص١٥٥ .

كثيرا مثل : تغوّل ، شام ، شال ، عقابيل ، ضرير ، ولم يكن من العسير وضع كلمات غيرها ، ولكنه المؤمن بلغة الشعر الخاصة ونفوره من المبتذل ، وتمكنه من العربية ، ومحاولة إحياء كلمها الذي بَعُدَ عن الاستعمال ، دفعه الى هذه الكلمات التي لا تبدو لديه غريبة ، فضلا عن أن بعضها جاء قافية لا تحل محلها كلمة غيرها ، ومن ذلك كلمة (رقوء) في قوله :

وَشَلٌ بعيني لستُ أرخصه وآبَ الى رقوءِ

وهي الاختناق .

وكلمة (ضرير) في قوله :

ألفيتني نَهبا لمحتربٍ وطال بيَ الضريرُ

وهي المضادة .

وكلمة (سجير) في قوله :

إني ليعطفني الى حَرَمِ الحمى سَمْحٌ سَجيرَ

وهي الخليل والصفي .

وكلمة (غياطل) في قوله :

وأرْبدّ من رَهَجِ الصوارخ واستحال الى غياطِل

وهي الظلام ، جمع غيطل ، يقال : أغطلت السماء : أطبق دجنها .

وكلمة (الادمة) وكلمة (الرتمة) في قوله :

دنت فَرَحْنا فرقا غشّة لم نعرف القربى ولا الأدمه
يا جمع عمان خذوا حكمةً لتذكروا فتنفقدوا الرتمه

والاولى بمعنى القرابة أو الأسرة ، والثانية خيط يعقد في الإصبع للتذكير.
وكلمة (غضر) في قولـه :

سـعيت وكـان في أثـري   لئـام ضـاقهم غَضَـري

وهي الخصب ، يقال : غَضِر المال : أخصب بعد إقتار ، ورجل مغضور: مبـارك .

وكلمة (الوسوق) في قولـه :

وعَدَلْتُ عنه لِما دهاني بالثقيل من الوسيقِ

وهي الحِمْلُ ، وسقه احمله .

وكلمة (اللغانين) في قوله :

ظلال جَرْسٍ هداني سِحْرُ وارفها   وقد تَلَقَّفته بـين اللغـانينِ

وهي الخياشيم ، واللغنون الخشيوم .

وكلمة (يجشـب) في قوله :

ورضيت بالثمدِ اليسير تسيغه   غثـا وأنت بما يمر ويجشـب

وهي الخش الغليظ البشـع .

وكلمة (الصِناب) في قوله :

ولستُ كما شكا قِدما جرير   وأعوزه المرقّـقُ والصِّنابُ

وهو ضرب من نبات يؤكلِ .

وكلمة (البرى) في قوله :

دَع الغث يا مؤثرا حَمأةً لعنت بفيك الشجا والبرى

وهي التراب •

وكلمة (نيرب) في قوله :

وقد غام من أمرنا ما انتهى الينا وما شأنه نَيْرَبُ

وهي الشر والنميمة •

وكلمة (التنائف) في قوله :

أجَلْ أنت منه اليوم في بعض ضائع لقد عَبَثت بالدار هُوجُ التنائف

وهي الأرض الواسعة البعيدة الاطراف أو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس •

وكلمة (بتيل) في قوله :

لا تأسَ إن جفّ النُضارُ وهل يَفي غُصْنٌ بتيلُ[٣٧]

وهي المقطوع ، والنخلة المنقطعة عن أمها •

لقد جرّته القافية الى مثل هذه الكلمات التي لا تستعمل في الشعر الحديث ، ولكنه وهو اللغوي الضليع لم يرَ بأسا من استعمالها ما دام المعنى يقود اليها والقافية تحكمها •

---

(٣٧) تنظر الابيات في حنين الى الكلم الضائع ص١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ٢٦٣ ، ٣٦٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٨ ، ٤٣٠ ، ٥١٢ ، من ملحمة الرحيل ص٤٢ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ •

(٦)

وسار على نهج القدماء في القسم ، فهو يقسم بلفظة الجلالة :

حَسِبْتُ ولا واللهِ أنّ لبانَةً بقيت لها فيما تظن وتحسب[٣٨]

وقال :

تاللهِ ما أفتأ إلاّ ذاكرا ما آدني من عبثي وباطلي[٣٩]

وأقسم بالليل والصبح والضحى والأصيل والنجم :

والليلِ والصباحِ والأصائلِ وساهراتِ النجم والمناهلِ
والليلِ إنْ يغشى وريانِ الضحى أجلّ ما ينساب في خمائلي[٤٠]

وبالفجر :

أقسمت بالفجرِ وأيّ فجر وكيف ألقاه ببعض بِشْر[٤١]

وبكلمة (وَحقك) :

إني وحقّك شدّ قيثاري هوى وشجا صَداها[٤٢]

وبالكلمات والألاحين :

أقسمتُ بالكلمات الغر تُسلمني قيادَها والنشيد السمح في وتري
وبالألاحين قد وافت لتسعفني وما استجد الي اليوم من غرري[٤٣]

---

(٣٨) حنين الى الكلم الضائع ص٢٤٨ .
(٣٩) نفسه ص٣٦ .
(٤٠) نفسه ص٣٦ .
(٤١) من ملحمة الرحيل ص٢٧٩ .
(٤٢) حنين الى الكلم الضائع ص٩ .
(٤٣) نفسه ص٩٨ .

وبالضـــاد :

أقسمتُ بالضّاد المنير روى سُوَرَ الكتاب وقد وَفَى قَسَمْ[٤٤]

و (عيشــك) :

قُلْ لي بعيشِك أين أهلُ الحيِّ والبلدِ الشقيقِ[٤٥]

و (ابيـك) :

فـلا وابيـكَ مـا خبـر كعـينٍ أصـابت منـك في عـابٍ وذامِ[٤٦]

و (بمـا ثـمر) :

قسـما بما ثمرّتُ من قيـمٍ وبما انجلى من هديها فلق[٤٧]

و (طيبة الجنى) :

قسما بطيّبةِ الجنى ازدهـرت وزكت بهطّال من الدّيَمِ[٤٨]

وبالغانية اللغة العربية وبما اهتدى الى مناقبها :

قسما بغانيـةٍ بمـا حَفِلَتْ وبمـا تصـبّاني الى قسمي
وبمـا اهتديـت الى مناقبها ممـا تبلّـج واضـح العلم

وبما أعلى من نشـب :

قسما بما أعليتُ من نَشَبٍ وافٍ سما لسنائِه قسمي[٤٩]

---

(٤٤) نفســه ص٤٨٣ .
(٤٥) نفســه ص١٧٦ .
(٤٦) من ملحمة الرحيل ص١٥٦ ، وينظر حنين الى الكلم الضائع ص٣٢٨ .
(٤٧) حنين الى الكلم الضائع ص٤٦٨ .
(٤٨) نفســه ص٤٠٧ .
(٤٩) حنين الى الكلم الضـائع ص٣٨٢ .

وبالعراق ورافديه والنخيل :

يمينا بالعراق ورافديه وبالنخل النبيل وما يجود[٥٠]

والمسجد الأقصى والتين والزيتون وطور سنين :

والمسجد الأقصى ومن فيه سَجَدْ
والتين والزيتون والعيش الرغدْ
وطور سينين وبيضة البلدْ[٥١]

واستعمل (يمينا) عدة مرات ، من ذلك قوله :

يمينا ما انكفأتُ على خيال وكيف أفوت ماشهدت يميني[٥٢]

واستعمل ـ أحيانا ـ (أقسم) و (قسما) من غير ذكر المقسوم به[٥٣]
وكان اكثر قسمه بكلمة (لعمرك) :

لعمرك قد غلبت وما رجاء على أمري اذا استخذى زماني[٥٤]

(٧)

ومن تأثره بالقديم استعمال كلمة (لاهُمَّ) للدعاء ، وقد استعملها كثيرا في ديوانه « الكلم الضائع » وقليلا في ديوانه « من ملحمة الرحيل » ويراد بها (يا الله) ، فضلا عن استعمال أدوات النداء الاخرى ولا سيما (يا) التي هي اكثر الأدوات استعمالا قديما وحديثا .

---

(٥٠) من ملحمة الرحيل ص٣٣٧ .
(٥١) حنين الى الكلم الضائع ص٣٤٢ .
(٥٢) من ملحمة الرحيل ص٢١٨ ، وتنظر ص٣٠٨ ، ٣١٤ .
(٥٣) ينظر حنين الى الكلم الضائع ص٣٧ ، ١٧٨ ، من ملحمة الرحيل ص٢٣ ، ٢٧٩ .
(٥٤) حنين الى الكلم الضائع ص١٦٥ ، وتنظر ص١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٢٥ ، ٢٤٧، ٢٦٦ ، ومن ملحمة الرحيل ص٥٣ ، ٦٦ ، ١٥٨ ، ٢٨٤ .

(٨)

واستعمل عدة صيغ للدعاء فمنها للخير : هُديت الحجة ، جُزيت الخير ، وُقيت الشر ، لك المجد ، لك الخير ، لأمك الخير ، رعاك الله ، ولك الله ، خلاك ذم ، لاعدمتك ، ومنها للشر : لك الويل ، لا لعالك ، لا درَّ دَرُّهم ، هوت أمه ، وهي من القرآن الكريم : « وأمّا مَنْ خَفّت موازينه • فأمّه هاويه » (القارعة ٨ـ٩) •

(٩)

تنوع أسلوب التكرار في شعره ، فمن تكرار كلمة قوله :

كلما كلما حَمِرتْ لعيني بارقا رابني وقد قلت هيت[٥٥]

ومنه تكرار النداء إذ كَرَّرَ في قصيدته « يا مطمح العين »[٥٦] النداء « يا مطمح العين » خمس مرات ، وكان تكرارها في أول مقطع من القصيدة •

ومنه تكرار القسم إذ كرر في قصيدة « لعمرك »[٥٧] القسم « لعمرك » عدة مرات •

ومنه تكرار الدعاء « لك المجد » في قصيدة « رحيل »[٥٨] •

وتكرار الرجاء « حنانيك » في قصيدة « سلكت الحزم »[٥٩] •

---

(٥٥) من ملحمة الرحيل ص٥٠ ، وينظر تكرر الفعل (فاتني) في ص٣١١ •
(٥٦) حنين الى الكلم الضائع ص١٢٧ •
(٥٧) نفسه ص١٦٥ •
(٥٨) نفسه ص٣١٩ •
(٥٩) نفسه ص١٧٩ •

التكرار مستساغا لانه كان يغير ما بعدها ، فيقول : « لا تراعي إنْ هدّني

وتكرار الامر « لا تراعي » في قصيدة « لا تراعي »(٦١) ، وجاء هذا

وجل" » و « لا تراعي إنْ ضاق بي زمن " » و «لا تراعي إنْ رحت في ألمي» و « لا تراعي إنْ أوجع النغمُ » وكان هذا التنويع منطلقا للفكرة التي كان يعبر عنها ، بعد انتهاء المقطع السابق .

وتكرار « أتعلم » كما في قصيدة « فلاح بعيدا لك المغرب »(٦٢) .

وتكرار الصيغة الخبرية « وافتك » في قصيدة « وافتك ليلى »(٦٣) .

وتكرار المقطع « يا مُرْسِلَ النغم الشاكي » في قصيدة « يا مرسلَ النغم »(٦٤) وكان يغير في النداء : « يا مرسل الشاكي وثقت به » و « يا مرسل النغم الشاكي طات بها » و « يا مرسل النغم الشاكي سكبت به » و « يا

وتكرار الأمر « أنِلْني » في قصيدة « بلاد العرب أوطاني »(٦٠) .

مرسل النغم الشاكي تعاوده » .

وكرر في قصيدة « من لي بلحن وهو لي حاجة »(٦٥) الشطر الاول من المطلع :

قف بي فقد ضقت بتسياري   على صدى ألْهَبَ تذكاري

وختم به القصيدة بعد أن أجرى عليه تعديلا ، فقال :

قِفْ بي فقد أوجع تسياري   على نجيٍّ من صدى الدارِ

---

(٦٠) نفسه ص٨٨ .

(٦١) نفسه ص١٤٢ ، ومن ملحمة الرحيل ص٣٠٣ .

(٦٢) حنين الى الكلم الضائع ص٤١٣ .

(٦٣) من ملحمة الرحيل ص٣٢٠ .

(٦٤) حنين الى الكلم الضائع ص١٦٢ .

(٦٥) حنين الى الكلم الضائع ص٦٣ ، وص٣١٨ ، ومن ملحمة الرحيل ص٣٥ .

وكرر في قصيدته « أخي عبدالمسيح »[66] المطلع في خاتمة القصيدة من غير تغيير :

أخي عبدالمسـيح السـمح يا خيرَ أحبّائي

هذه أهم ملامح شعره ، وقد اتضح أنه التزم بأصول الشعر العربي القديم لغةً وأسلوبا ، ولم ينهج نهج دعاة الحداثة إذ لم يرَ في كثير من نتاجهم أصالة ومعاناة حقيقية كما عانى في فجر شبابه ، وفي غربته ، فضلا عن أنه كان ملتزما بالروح العربية والاسلامية ، التي تحفظ الأمة العربية ولغتها وفكرها وعقيدتها من الانهيار أو الذوبان في التيارات الاجنبية التي تقضي على كيان الأمة ، ومن هنا جاء موقفه من العولمة والاتجاهات التي لا تخدم العرب وتعلي من شأنهم ، بل تردهم الى ما لا يريده المخلصون لأمتهم ، والمؤمنون بفكرها وكيانها العتيد .

وبعـــد :

فهذا موقفه من القضايا التي عرض لها في شعره وأيدها ببعض ما ذكره في كتابيه « حديث السـنين ـ سـيرة ذاتية » و « فوات ما فات من حديث السنين » وهذه آراؤه في بعض المسائل ، وما كان له أن يعرض تلك المواقف ويبدي تلك الآراء ، لولا أنه مخض الثقافة القـديمة والحديثة ، وانتهى الى ما انتهى من مواقف وآراء .

(٦٦) من ملحمة الرحيـل ص٣٠٧ .

الخاتمة

ذكرياتُ عِدَّةِ عقود من الزمان طافت بي وأنا أقرأ كتابَي سيرته وديوانيه ، ورأيته أمامي كما رأيته يوم دخل كلية الآداب والعلوم سنة ١٩٥٦، تحمله آمال عظيمة ، وطموح كبير .

رأيته اليوم كما رأيته أمس ، وأنا أسطر عنه الصفحات الماضية وفاءً وتقديرا لما بذل من جهد في التدريس والتأليف ، واحتراما لشخصه الذي وجدتُ فيه المثل الأعلى في الصدق الذي جرَّ عليه المتاعب ، وأبعد عنه الأصحاب الذين لا يريدون إلا المجاملة والنفاق ، فعاش ــ رحمه الله ــ في انقباض أخذ من عمره أعواما طوالا ، فاذا به يعاني آلام الغربة عشرين عاما ، ويشكو مما آلت اليه حال الناس ، وهم يعيشون في سباق مع الزمن غير آبهين بمن كانوا شموعا أنارت لهم دروبَ الحياة .

لقد جأر في غربته بالشكوى ، وحنَّ الى وطنه وبيته ونخلته وزيتونته ، وكان يتمنى أن يعود الى الوطن ليُدفَنَ في أرض أجداده ، ولم تصدق الأمنية فدفن بعيدا عن وطنه الذي أحبه وأخلص له .

تغرَّب ، وكانت غربته روحية ، اكثر مما هي غربة المكان ، وكان له ــ لولاها ــ أن ينسجم مع المحيط الذي حوله ، ولكنه ــ رحمه الله ــ لم يجد مَنْ يمحضه الودَّ فسدت عليه الغربة مسالك الراحة والاطمئنان ، على الرغم من أنها ليست خاصة به ، وإنما هي مما طاف بالبشر في كل الحقب والأزمان ، ومنها الغربة الروحية التي عَبَّرَ عنها الشيخ أبو سليمان الخطابي بقوله :

وإني غريبٌ بين بُسْتَ وأهْلِها ... وإنْ كان فيها أُسرتي وبها أهْلي
وما غربةُ الانسان في غُربة النوى ... ولكنها واللهِ في عَدَمِ الشَّكْلِ

لقد سَمّاها ـ رحمه الله ـ « غربة الفكر » وسميتها « غربة الروح » التي لم يكن لها أن تشتد لولا هجرته ، ولولا سوءُ ما كان حوله . وقد أثمرت تلك الغربةُ خيرَ الثمر ، إذ ترك عشرات الكتب المؤلفة ، والمحققة ، والمترجمة ، فضلا عن شعر غزير طُبع منه ديوانان في أكثر من ألف صفحة من القطع الكبير .

ودَّعَ الحياةَ والقلمُ في يده ، فيا ليت الذين أنكروا فضله وحسدوه يعلمون ما أعدَّ اللهُ له من أجر عظيم ، وما سيذكره المنصفون من أبناء وطنه الذي أخلص له ، وأمته التي اعتز بها ، وهو في العالم الآخر ، ينعم بما أعدَّه الله للمتقين .

فسلامٌ عليه وهو في مثواه الأخير بعمان ، وسلام على مَنْ قدَّر علمه واعترف بفضله ، وإنا للهِ وإنّا اليه راجعون .

الدكتور احمد مطلوب

المسرد

الشجون
٩١ – ١١٤

الإستلهام
١١٥ – ١٤٧

الملامح
١٤٩ – ١٨١

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٥٧٢ لسنة ٢٠٠٧